شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٣)

مالك الأشتر رجلٌ كاد أن يُبدّل وجه التاريخ !

محمد سليمان.[١]

ملخّص البحث:

مولده: اليمن، ولد مالك بن الحارث بن عبد يَغُوث بن سَلَمَة (مَسلَمَة) بن ربيعة بن الحارث بن جَذيمة (خُزيمة) بن سعد (بن قيس) بن مالك بن النخع بن عمرو بن عُلة بن خالد (جَلد) بن مالك بن أدد بن زيد بن يَشجُب بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سبإ، فهو النخعيّ، فالكوفيّ، المعروف بالأشتر، إنَّه شريف كبير القدر، فهو أحد الأشراف والأبطال المذكورين في التاريخ، كان (يركب الفرس الجسام فتخط إبهاماه في الأرض) وكذا عدي بن حاتم.

إنّ مالكاً فارسٌ شجاع، عُرف بصلابته وجرأته وشدّة بأسه، فشهدوا بفروسيته وشجاعته، وكان يُلقب «كبش العراق».

قال العلّامة في الخلاصة: مالك الأشتر جليل القدر عظيم المنزلة، كان اختصاصه بعليٍّ عليه السلام أظهر من أن يخفى، وتأسّف أمير المؤمنين عليه السلام بموته، وقال: «لقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله».

وقال السيد الخوئي: إنَّ جلالة مالك واختصاصه بأمير المؤمنين عليه السلام وعظم شأنه ممّا اتفقت عليه كلمة الخاصة والعامة...

قال ابن أبي الحديد: وكان فارساً شجاعاً رئيساً، من أكابر الشيعة وعظمائها ...

---

١. محقق و باحث ديني .

هنـاك في بـلاد اليمن وفي واحـدة من قبائلها وقبل الإسـلام ولد مالـك بن الحارث بـن عبـد يَغُـوث بن سَـلَمَة (مَسـلَمَة) بـن ربيعة بـن الحارث بـن جَذيمـة (خُزيمة) بن سـعد (بـن قيس) بـن مالك بـن النَّخَع بـن عمرو بـن عُلَة بن خالـد (جَلد) بـن مالك بـن أُدَد بـن زيـد بـن يَشـجُب بـن عَريب بـن زيد بـن كهلان بـن سـبإ، فهـو النخعيّ؛ فالكـوفيّ المعـروف بالأشـتر؛ مـن «الشـتر: انقـلاب جفـن العـين مـن أعـلى وأسـفل وتشـنجه». وهـو وصـف جـاءه متأخـراً واشـتهر بـه، وذلـك حين شُـتِرَت عينـه، أي شُـقّت وانقلـب جفنها في فتح دمشـق وحرب اليرموك، فاشـتهر بالأشـتر، وصار لقباً يعـرف به عـلى مـا ذكروا.

وممّـا قالـوا عنه: إنَّـه «شريف كبـير القدر»، فهـو أحـد الأشراف والأبطـال المذكورين في التاريـخ، كان يركـب الفـرس الجسـام فتخط إبهامـاه في الأرض،فمالك فارس شـجاع، عُـرف بصلابتـه، وجرأتـه، وشـدّة بأسـه، فشـهدوا بفروسـيته وشـجاعته. وكان يُلقـب «كبـش العـراق» كـما ذكـره النجـاشي أحد شـعراء وقعة صفـين في قصيـدة له:

دعونا لهـا الكبـش كبش العراق وقد خالط العسـكر العسكر ...

«... أمّـا كبش العـراق، وهـو الأشـتر، فلـم يكن يـرى إلّا الحـرب، ولكنّه سـكت على مضض...».

قـال ابـن منظـور: «كَبْـشُ القوم: رئيسُـهم وسـيِّدُهم، وقيـل: كَبْـش القـوم حامِيتُهم والمنظـورُ إليـه فيهم، وكَبْشُ الكتيبةِ: قائدُها»، فهو «أحد الشـجعان الأبطال المشـهورين»، «كان فارسـاً شـجاعاً رئيسـاً»، «فـارس شـاعر» طفحت فروسـيته وشـجاعته على ألسـنة المؤرخـين وأقلامهم ...

هـذا إضافـةً إلى فصاحتـه وبلاغتـه، حتـى وصـف بأنـه كان «ذا فصاحـة وبلاغـة» وأنـه «خطيـب بليـغ»، حيـث ذكـروا أنـه كان خطيبـاً شـاعراً مكثـراً، حتى احتـلّ بخطبه

وشاعريته منزلةً جيدةً في معاجم الشعراء وتراجمهم، وقد امتازت أشعاره وأرجوزاته بالجودة والإبداع، ومثال ذلك ما ذكروه عنه في القسم، والقسم هو أن يريد الشاعر الحلف على شيءٍ، فيحلف بما يكون له مدحاً، وما يكسبه فخراً، أو ما يكون هجاءً لغيره، أو وعيداً له، أو جارياً مجرى التغزل والترفّق. واختاروا مثالاً للأول قول الأشتر النَّخعيّ من الكامل:

بقَّيتُ وفري وانحرفتُ إلى العُلا ... ولقيتُ أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لم تخلُ يوماً من نهاب نفوس

وأبيات الأشتر تضمّنت فخراً له، ووعيداً لغيره، فحصل فيها الافتنان مقترناً بالقسم.

أراد بابن هند هذا معاوية بن أبي سفيان، والأشتر قد أبلى بلاءً في صفين، وبرَّ في قسمه الذي نوّه عنه في شعره!. ولا أستعجل أشعاره وخطبه وحتى مواقفه الآن، تاركاً ذكرها لما ستتضمّنه مقالتنا هذه.

هذا وإنَّ جميع هذه المناقب ولعلَّ هناك غيرها؛ جعلته يحظى بزعامة قومه، ولم يُكتفَ بنعته «رئيس قومه» وسيدهم وخطيبهم وفارسهم بل هو «ملك العرب» .. كما أنَّهم وصفوه بأنه «أحد ذوي النصرة والحمية» بعد أن ذكروا أنه كان «أحد أصحاب عليٍّ عليه السلام». وهكذا ذكر فضائلَه عددٌ من كبار المؤرخين، وعلماء الرجال كما يأتينا.

أمّا عن أولاده فابنه إبراهيم كان «أحد الأبطال والأشراف كأبيه، وكان شيعيًّا فاضلاً ـ والكلام للذهبي ـ وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد بن أبيه يوم وقعة الخازر، ثمَّ إنه كان من أُمراء مصعب بن الزبير، **وما علمت له رواية**، وقتل مع مصعب في سنة اثنتين وسبعين».

إسلامه :

اختلف في وقت إسلامه، وتبعاً لذلك اختلفوا في كونه صحابيًّا أو تابعيًّا، فالمشهور أنه لم ينل الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ وبالتالي لم يُعدُّ من الصحابة، بل كان من التابعين ومن كبارهم. وممّا يدلّ على صحبته نصوص عديدة؛ منها أنه كان ممن «أدرك الجاهلية والإسلام» و «ممّن أدرك زمان النبوّة» ... فآمن برسالة الإسلام بقلبه وفكره وجوارحه.

ومنها قوله ـ رحمه الله ـ في جواب بطل الروم حين برز إليه في وقعة اليرموك، فقال له ماهان: أنت صاحب خالد بن الوليد؟ قال: لا أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ.

وعدّه ابن شهر آشوب في المناقب من وجوه الصحابة وخيار التابعين، وقد ألّف بعض العلماء رسالة في إثبات صحبته للنبيِّ ﷺ كما في الذريعة ...

وأمّا الأعظم شهادةً

فهي تلك التي شهد رسول الله ﷺ له ولعدد من المؤمنين معه بالإيمان! فقد شهد النبيُّ ﷺ بإيمانه، وهي شهادة وصفها ابن أبي الحديد بأنها «شهادة قاطعة من النبيِّ ﷺ بأنه مؤمن!».

وقد جاءت هذه الشهادة في قوله ﷺ لجماعة:

«ليموتنّ أحدكم بفلاةٍ من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين».

فكان الذي مات هو أبوذرٍّ، وكان مالك بن الحارث الأشتر واحداً من تلك العصابة المباركة، التي شهد لها رسول الله ﷺ بالإيمان، وقد وصفها الصحابي الجليل أبوذرّ الغفاري بالبشارة حينما أسمعها هذه العصابة التي ما إن سمعت به حتى أسرعت إليه، وهو في ساعته الأخيرة، وكانوا يُفدّونه بآبائهم وأمّهاتهم! فقال لهم:

«أبشروا فإنّي سمعتُ رسول اللهﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «ليموتَنّ رجلٌ منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين!».

وليس من أولئك النفر أحد إلّا وقد هلك في قرية وجماعة، فأنا لا شكَّ ذلك الرجل، والله ما كَذبتُ ولا كُذبتُ...».

كلمته التأبينيّة:

كانت لمالك الأشتر كلمة في تأبين أبي ذرٍّ رضوان الله تعالى عليه؛ بعد أن سووا عليه التراب، قام على قبره: «فحمد الله وأثنى عليه وذكر نبيَّه محمداًصلوات الله عليه، ثمّ قال: اللهم! هذا أبوذر جندب بن جنادةبن سكن الغفاري صاحب رسولك محمدﷺ، اتبع ما أنزلت من آياتك، وجاهد في سبيلك، ولم يغير ولم يبدل، ولكن رأى منكراً فأنكره بلسانه وقلبه، فحقر وحرم حتى افتقر وضيّع حتى مات غريباً في أرض غربة، اللهم! فأعطه من الجنّة حتى يرضى، واقصم من طرده وحرمه ونهاه من مهاجرة حرم رسولك محمدﷺ!».

ثمّ أقاموا يومهم ذلك عندقبره، فلمّا كان بالعشيّ عرضت عليهم أمُّ ذرٍّ الطعام فأكلوا، فلما كان من غد سلموا عليها، وانصرفوا. وفي قول: حملوا أهله معهم حتى أقدموهم المدينة...

إنَّ تلكم الشهادة أو البشارة بإيمان هذه العصابة ـ ومنهم مالك الأشتر ـ لتعدّ وسام فخر وعزٍّ له في الدنيا والآخرة، وهي دليل اعتناقه الإسلام بصدق، وأنه آمن بإخلاص، وجاهد بلا توان ولا تردّد أو تخاذل طيلة حياته المفعمة بمواقف البطولة والثبات على المبدإ، حتى كان من المسلمين حقًّا، ومن أولئك الذين وصفهم التنزيل العزيز:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ...﴾.[1]

---

١. الأحزاب: ٢٣.

لم يترك مالك الأشتر ميادين القتال، فتراه مقاتلاً خاض معارك عديدة منها مشاركته في فتوح الشام، وفي معركة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم.

ماهان قائد الروم :

«... وبرز ماهان فخرج إليه رجل من دوس فقتله ماهان، وخرج إليه ثان فقتله، وجال ماهان وقوى قلبه ودعا بالبراز، فسارع المسلمون إليه وكلٌّ يقول: اللهمّ اجعل قتله على يدي!

فكان أول من برز إليه مالك النخعي، ثمّ جاوله في ميدان الحرب، فقال له ماهان: أنت صاحبي خالد بن الوليد؟ قال: لا، أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ فحمل على مالك، وضربه بعموده على بيضته، فغاصت البيضة في جبهته فشترت عينه، فمن ذلك اليوم سمي (الأشتر) وكان من فرسان العرب المذكورة، فصبَّر نفسه وحمل على ماهان والدم يسيل من جبهته، وأخذته أصوات المسلمين فقوى عزمه. قال مالك: فاستعنتُ عليه بالله عزَّوجلَّ وصليتُ على محمد ﷺ وضربته ضربة عظيمة، فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن، فلما أحسَّ بحرارة الضربة ولّى منهزماً...».

وهكذا هي مواقفه في مواقع أخرى كفتوح دمشق و بلاد الشام ومصر وبلاد البهنسا والروم والعراق، ولّما احتاجت معركة القادسية ضدَّ كسرى الفرس في جهة العراق إلى مقاتلين، كان مالك في ألف مقاتل منهم هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص، وقيس بن هُبيرة المُراديّ قد التحقوا بجيش اليرموك، وتوجهوا بعد فتح دمشق ليحسموا مع إخوانهم من جند الإسلام معركة القادسيّة هناك.

قال ابن الأثير: سَيَّر أبوعبيدة بن الجرّاح جيشاً مع مَيسَرة بن مَسروق العَبْسيّ، فسلكوا درب (بغراس) من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، وهو أول من سلك ذلك الدرب، فلقيَ جمعاً للروم معهم عربٌ من قبائل غسّان وتَنُوخ وإياد يريدون اللَّحاق

بهرقل، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثمّ لحق به مالك الأشتر النَّخَعيّ؛ مدداً من قِبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية فسلموا وعادوا.

كما ذكر ابن أعثَم في (الفتوح): أنّ الأشتر تزعّم جيشاً قوامُه ألف فارس ليفتح (آمُد) و (مِيافارقين)، فلمّا رأى مالك حصانةَ حصن آمُد أمر جيشَه بالتكبير وتعالت أصواتهم بالتكبير، فظنّ العدوّ أنّهم عشرة آلاف، فأرسلوا إلى الأشتر في طلب الصلح، وكذلك فعل أهل ميافارقين حيث صالحوه وانتهى الأمر بنصر المسلمين...[1]

كان منه كلُّ ذلك قبل أن يأخذ قراره ويختار الاستقرار، فكانت الكوفة سكناً له حتى عدَّ من الطبقة الأولى من أهل الكوفة، والحقيقة أنَّ الذي يطّلع على سيرته لا يرى فيها استقراراً وسكناً، فلم يترك الرجل الجليل جهاده بالحكمة والكلمة الطيبة والوقوف بشدّة إذا ما اقتضى الأمر ذلك، ضدَّ أيّ ابتعادٍ أو انحراف عن سيرة الإسلام

---

١. المحبر: ١١٣؛ تحرير التحبير في صناعة النثر والشعر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هجرية) تحقيق د.حفني محمد شرف؛ الكتاب الثاني، باب القسم: ٣٢٧ مع هامشها؛ وقعة صفين، لنصر بن مزاحم: ٣٩٦ـ٤٨٤؛ وابن منظور، في لسان العرب ٦: ٣٣٨ كبش، الطبعة الثالثة، سنة: ١٤١٤ هجرية، دار صادر، بيروت/ لبنان؛ الكشاف، للزمخشري ٢: ٢٦٦؛ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: أربعة وعشرون جزءًا: إبراهيم بن الأشتر النخعي؛ فتوح الواقدي ٢: ٢٢٤؛ أسد الغابة ١: ٦١؛ وابن الأعثم ١: ٢٠٨؛ والذريعة، آغابزرك الطهراني ٧: ٣٧؛ معجم رجال الحديث ١٥: ١٦٧؛ وانظر سير أعلام النبلاء، الجزء الرابع: ٣٤؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني ١٠ حرف الميم ١١ـ١٢؛ سِمط اللآلي، للوزير أبي عبيد البكري ١: ٢٧٧ـ٢٧٨؛ وانظر التجليات البلاغية في شروح الحماسة، للدكتور إبراهيم عبد الفتاح رمضان: ٥٢ وبهامشها عن شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي ١: ١١١؛ وشرح ديوان الحماسة، للتبريزي ١: ٤٠؛ وانظر قصة وفاة أبي ذرٍّ في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، جندب بن جنادة، أبو ذر الغفاري؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٥: ٩٨ـ١٠٠؛ وكتاب الفتوح، لابن أحمد الكوفي ٢: ٣٧٧ـ٣٧٨، ١: ٢٠٨؛ وتاريخ الطبري ٢: ٨٠؛ وتاريخ ابن الأثير ٢: ٢٦٥ أو ٣٤٤ سنة ١٥؛ وطبقات ابن سعد ٤: ١٧٢ـ١٧٣.

ومبادئـه وأحكامه.

ثورتهم على الخلافة الثالثة :

مـن أهـم المفاصـل في حياتـه أن كان من تلـك النخبة المؤمنـة التي آلت على نفسـها أن تكـون مـن دعاة الإصـلاح، إبلاغاً وثـورةً وتأثـيراً، وكيـف لا يكونون هكـذا وهم قريبو عهـد بعـصر النبوّة والرسـالة، وقد اسـتوعبوها قيـماً ومواقـف، وظلّت حيّةً نشـطةً لم تخبو آثارها في نفوسـهم، وإذا بهم اليوم يُشـاهدون جهازَ خلافةٍ وبطانةَ سـلطةٍ طغت وتكبّرت وتجـبّرت على مـشروع الإسـلام وواجبات الخلافـة، وصالحـي الأُمّة وحقـوق ضعفائها، فراحـت تكبـت أنفـاس بعضهـم وتـسيء لبعض آخـر، وتـؤذي طائفـةً ثالثة حـين ينطق رجالهـا بالحـقِّ... ويشـاهدون أيضـاً طغيـان جمـع مـن الصحابـة، واسـتئثارهم بالأموال والمقاطعـات هنـا وهنـاك، فغدا مجتمـع يومذاك بـين طبقة محرومة مسـتضعفة مسـحوقة، وطبقـة أثـرت، حين تكدسـت الثروات بـين أيديها، خصوصـاً عند أشـخاص مقرّبين من سـلطة الخلافـة ومن أعمدتهـا: «... وَقَـامَ مَعَـهُ بَنُو أبيـهِ يَخْضَمُونَ مَـالَ اللهَّ خِضْمَـةَ الإِبل نِبْتَـةَ الرَّبيـع إِلىَ أن انْتكَـثَ عَلَيْـهِ فَتْلُهُ، وأَجْهَـزَ عَلَيْهِ عَمَلُـهُ، وكَبَتْ بـهِ بطْنَتُهُ...».

لقـد كان رائد ذلك الخليفة نفسـه؛ أو حبُّـه لأقربائه ومريديه، أو ضعفـه أو إهماله؛ فلم يـضرب عـلى أيدي الآخذين المسـتأثرين بأمـوال العامـة، ومنعهم من التسـلط على رقاب النـاس وإذلال الرعيـة حتى صاروا مدعاةً للفسـاد، وغضبـاً من الناس.

وعـلى عهـدة المسـعودي وصفـه لتلك الفـترة، ونقلـه عدد ممـن كتب عن تلـك الفترة مـن تاريخ المسـلمين ومنهـم ابن خلـدون حيث نقل في مقدمتـه عن المسـعودي قوله: «في أيـام عثـمان اقتنـى الصحابـة الضيـاع والمـال، فكان له يـوم قتل عنـد خازنه خمسـون ومئة ألـف دينـار، وخلف إبـلاً وخيلاً كثـيرة، وبلغ الثمن الواحـد من متروك الزبـير بعد وفاته خمسـين ألـف دينار، وخلـف ألف فرس وألـف أمة، وكانـت غلة طلحة مـن العراق ألف دينـار كلّ يـوم، ومن ناحيـة السراة أكثر من ذلـك، وكان على مربط عبـد الرحمن بن عوف

ألـف فـرس، وله ألـف بعير وعـشرة آلاف من الغنـم. وبلغ الربـع من متروكه بعـد وفاته أربعـة وثمانـين ألفـاً، وخلف زيد بن ثابـت من الفضـة والذهب ما يكـسر بالفؤوس، غير مـا خلـف من الأمـوال والضيـاع بمئة ألف دينـار وبنى الزبـير داره بالبـصرة وكذلك بنى بمـصر والكوفـة والإسـكندرية، وكذلـك بنـى طلحـة داره بالكوفـة، وشـيد داره بالمدينة وبناهـا بالجص والآجر والسـاج. وبنى سـعد بـن أبي وقاص داره بالعقيق، ورفع سـمكها وأوسـع فضاءهـا، وجعل على أعلاهـا شرفات».

ومنهـم الدكتـور طـه حسـين، تحـدث عـن تلـك الفـترة بشـكل واضـح، وممّـا ذكره: «... وملكـت قلـة قليلـة مـن المسـلمين أرض الأقاليـم، فانقطـع النـاس إليها وانقسـموا بينهـا شـيعًا وأحزابًـا. ونتيجـة هـذا كلّـه أنّ هـذا النظام الـذي اسـتحدثه عثمان عـن رأيه هـو، أو عـن رأي مشـيريه لم تكـن لـه نتائجـه السياسـية وحدهـا، مـن نشـأة هـذه الطبقة الغنيـة المسرفـة في الغنـى التـي اسـتهوت النـاس وفرقتهـم أحزابًـا، وتنازعـت السـلطان فيـما بينهـا بفضـل هـذه التفرقـة. وإنّـما كانت لـه نتائجـه الاجتماعية أيضًـا؛ فقد بلـغ نظام الطبقـات غايتـه بحكم هـذا الانقلاب، فوُجـدت طبقة الأرسـتقراطية العليـا ذات المولد والثـراء الضخم والسـلطان الواسـع، ووجدت طبقة البائسـين الذين يعملـون في الأرض ويقومـون عـلى مرافـق هـؤلاء السـادة، ووجـدت بين هاتـين الطبقتـين المتباعدتـين طبقة متوسـطة هـي طبقـة العامة مـن العرب الذيـن كانـوا يقيمـون في الأمصار ويغـيرون على العـدو، ويحمـون الثغـور ويـذودون عمّـن وراءهم من النـاس وعـمّا وراءهم مـن الثراء. وهـذه الطبقة المتوسـطة هـي التي تنازعهـا الأغنياء ففرَّقوها شـيعًا وأحزابًـا. والذي يتتبع تاريـخ المسـلمين يلاحـظ أنَّ الـصراع الأول إنّـما كان بـين الأغنيـاء، ثـمّ بـين هـذه الطبقة الوسـطى وهؤلاء الأغنيـاء. فأمّا الطبقة الثالثـة، طبقة العاملـين في الأرض والقائمين على المرافـق المختلفـة، فلـم يظهـر أمرهـا إلّا بعد ذلـك، ولها قصـة أخرى!

فالفتنـة إذن إنّـما كانت عربية، نشـأت من تزاحـم الأغنياء على الغنى والسـلطان، ومن حسـد العامـة العربية لهـؤلاء الأغنيـاء. ولم يكد نظام عثمان هـذا يذاع ويـسرع الأغنياء إلى

الانتفـاع بـه؛ حتـى ظهر الشرُّ، وظهـر في الكوفة قبـل أن يظهر في أيّ مصر آخـر، وظهر في مجلس سـعيد بن العاص نفسـه. وقد كان ذلك سـنة ثـلاث وثلاثين...».

وهكـذا، والقـول لطـه حسـين، صار «المـال يجتمـع إلى المـال والنقد يضـاف إلى النقد، وكان الفقـراء وأوسـاط النـاس يـرون ذلـك فيعجبـون لـه ويعجبون بـه، وقـد تنطلق فيه الألسنة ...».

ومنهـم العلايـلي: في بيـان أسـباب الثورة: «لـين عثـمان، ولا أقول ضعفـه في مواجهة الطغيـان الجديـد حتـى انجرف بـه، فلم تكـن له فيه صفـة الزعيـم الذي يـداوره ويخفّف مـن حدّته وامتـداده، بل وقف عنـه حتى طغى عليه، فـكان انتقاد المصلحـين لهذا الوضع بمثابـة الانتقـاد له؛ لانخراطه الشـديد فيما عليـه الناس».

فيـما تحـدث آخرون عن تسـليط الخليفـة لبني أميّة عـلى رقاب المسـلمين، وعن توزيعه الأمـوال العامـة العائـدة لدولة الخلافة عليهـم وعلى غيرهم ممّـن ارتضاه الخليفـة، خاصّةً أولئـك الذيـن استبسـلوا وتنافسـوا في تحقيق المزيـد من المكاسـب الاجتماعية والسياسـية والاقتصاديـة، ولا يمكـن إغفـال دورهـم فيـما آلت لـه الأحـداث وفي صياغتهـا، بل وفي قتـل الخليفة؛ لإفسـاد أهداف الثوار وثورتهم، وإرباك السـاحة، وخلـط الأوراق؛ لتحقيق مصالحهـم وبقـاء سـلطتهم التـي هددهـا الثـوار... فعبدالرحمن بـن عوف ـ وهـو صهره الـذي اختـاره للخلافـة ـ تـوفي وكان فيـما تـرك ذهـب قطّع بالفـؤوس حتى مجلـت أيدي الرجـال منه.

وكان مـن جملـة مـا انتقـم بـه عـلى عثـمان أنـه أعطـى ابـن عمّه مـروان بـن الحكم مئة ألـف، وخمسـين أوقية..

وأن عثـمان كتـب لمـروان بخمس مصر، وأعطـى أقرباءه المـال، وتـأول في ذلك الصلة التـي أمـر الله بها، واتخذ الأمـوال (المزارع والعقـارات)...

فتلـك وهـذه أمثلـة من سياسـة الخلافـة الثالثـة الإداريـة والماليـة، وتقديـم بعض من

الصحابة وإبعاد آخرين، كانت السبب في إذكاء التنافس بينهم والتنازع والاقتتال فيما بعد، وكانت سبباً في إماتة مبدإ المساواة في الساحة المسلمة وهو المبدأ الذي أرساه رسول الله صلى الله عليه وآله وأظهرت بدلاً عنه مبدأ الطبقات الذي أدى إلى أن تعصف الفتنة بالنسيج الاجتماعي، وبكيان الخلافة... فكانت الثورة التي أودت بالخليفة قتيلاً، وإن ترك قتله آثاراً وخيمة على الساحة يومذاك، وفتنة كبرى شعارها (الثأر لدم عثمان، ولقميص عثمان ...) حملته صفحات التاريخ وأحداثه وبقيت و ما زالت تئنُّ منه الساحة المسلمة فرقةً وتشتتاً وتسقيطاً واتهامات، بل وحقداً وبغضاً وقتلاً و...[1]

ولاؤه للإمام عليٍّ عليه السلام :

لقد عرف مالك الأشتر بولائه المطلق للإمام عليٍّ عليه السلام، وتميّز هو والصحابي الجليل عمرو بن الحمق بعظيم تمسكهما بولاية الإمام عليه السلام، وأنّهما من شيعته المخلصين، حتى عُدَّ: «من أكابر الشيعة وعظمائها»، كما يصفه ابن أبي الحديد، وأنه «أشهر في الشيعة من أبي الهذيل في المعتزلة». ويضيف قائلاً أيضاً: وكان شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته:

«رحم اللهُ مالكاً، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله».

وقال ابن القيسراني: وكان الأشتر أحد الفرسان من ذوي النصر والحمية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه...».

وقد صدّر الشيخ المفيد ذكره للذين بايعوا الإمام عليّاً عليه السلام بالخلافة بقوله: «ونحن

---

١. انظر ابن سعد، في الطبقات ٣ : ١٣٦ و ٣ : ٤٤ ؛ البلاذري، في الأنساب ٥ : ٢٥ ؛ الحلبي، في سيرته ٢ : ٨٧ ؛ ابن خلدون، في مقدمته ؛ نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية ؛ المسعودي، في تاريخه ؛ الدكتور طه حسين، في كتابه الفتنة الكبرى، الفصل الثامن ؛ وعبد الله العلايلي، الإمام الحسين عليه السلام المقدمة : ٢١ ؛ وانظر بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ٣١ : ١٤٩ـ٢٤٦ حيث خصص باباً عنوانه: تفصيل مثالب عثمان وبدعه.. ؛ وانظر الهوامش مع مصادرها...

نذكـر الآن مـن جملـة مبايعـي أمير المؤمنـين عليه السلام الراضـين بإمامتـه، الباذلـين أنفسـهم في طاعته...».

ثـمَّ راح يذكـر بيعـة المهاجريـن وبيعـة الأنصار وبيعة بني هاشـم فبيعة سـائر الشـيعة ومـن يلحق منهـم بالذكر مـن أوليائهم وعليه شـيعتهم وأهـل الفضل في الديـن والايمان والعلـم والفقـه والقـرآن المنقطعـين إلى الله تعـالى بالعبـادة والجهـاد والتمسـك بحقائـق الايـمان. وراح يعـدّد أسـماءهم: ... ومالـك بـن الحرث الأشـتر النخعي سـيفه، المخلص في ولايتـه ...

ثـمَّ واصـل كلامـه قائـلاً: «ممّـن كانـوا بالمدينـة عنـد قتـل عثـمان وأطبقوا عـلى الرضا بأمير المؤمنـين عليه السلام فبايعـوه على حرب مَن حاربَ وسِـلم مَن سـالمَ وأن لا يولّـوا في نصرته الأدبـار وحـضروا مشـاهده كلهـا لا يتأخر عنـه منهم أحد حتـى مضى الشـهيد منهم على نصرتـه، وبقـى المتأخـر منهم عـلى حجّتـه حتى مـضى أمير المؤمنـين عليه السلام لسـبيله وكان من بقـى منهم بعـده على ولايتـه والاعتقـاد بفضله عـلى الكافّة بإمامتـه ...».

وكيـف لا يكون كذلك، وهـو الذي احتلّ منه منزلـةً عظيمةً، ومكانةً جليلةً، يُشـبِّهها الإمـام عـليّ عليه السلام بمنزلتـه هو مـن خاتـم الأنبياء صلى الله عليه وآله حيـث قال عنـه عليه السلام: «لقـد كان لي كما كنت لرسـول الله صلى الله عليه وآله».[1]

وشهد مع الإمام عليه السلام: وقعة الجمل و وقعة صفين

وكانتـا بعـد البيعـة للإمـام عـليٍّ عليه السلام بالخلافـة التـي يصفهـا الإمـامُ عليه السلام وكذا أسـبابها بقولـه: «... فَـمَا رَاعَنِـي إلّا وَالنَّـاسُ كَعُـرْفِ الضَّبُـعِ إلَيَّ يَنْثَالُونَ عَـلَيَّ مِـنْ كُلِّ جَانِب حَتَّى

١. شرح نهـج البلاغـة، لابـن أبي الحديـد ١٥ : ١٠٠ ؛ المؤتلـف والمختلف، ابن القيـسراني ١ : ٩ ؛ الجمل والنـصرة لسـيد العـترة في حـرب البـصرة، للشـيخ المفيـد (ت٤١٣ هجريـة) تحقيق: السـيد علي مير شريفـي، مكتب الإعـلام الإسـلامي : ١٠١ـ١١٠ .

لَقَدْ وُجِئَ الْحَسَنَان،[1] وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَم، فَلَمَّا نَهَضْتُ بالأَمْر: نَكَثَتْ طَائِفَةٌ! وَمَرَقَتْ أُخْرَى! وَقَسَطَ آخَرُونَ»! ثمَّ يقول عليه السلام: «كَأنهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾! بَلَى والله لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، ولَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وراقَهُمْ زِبْرِجُهَا! أَمَا والَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِر وقِيَامُ الْحُجَّةِ بوُجُودِ النَّاصِر ومَا أَخَذَ الله عَلَى الْعُلَمَاءِ ألاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ولاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ولَسَقَيْتُ آخِرَهَا بكَأْسِ أولِهَا ولأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْز»![2]

بعد هذه المقدمة، وتقييم الإمام عليه السلام للمرحلة المذكورة التي انتهت بالأمّة إلى حروب ثلاثة... فمن أجمل ما قرأتُ في صفين هو ما كتبه الإمامُ عليٌّ عليه السلام وصفاً لمالك الأشتر حين أمّره على زياد وشريح في صفين قائلاً: «أمّا بعد، فإنّي قد أمّرتُ عليكما مالكاً، فاسمعا له وأطيعا أمره، فإنه ممن لا يخاف رَهَقَه ولا سِقاطه، ولا بُطؤه عمّا الإسراعُ إليه أحزم، ولا الإسراعُ إلى ما البطء عنه أمثل ...».

أو «وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فَاسْمَعَا لَهُ وأَطِيعَا، واجْعَلاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنهُ مِمَّنْ لاَ يُخَافُ وَهْنُهُ ولاَ سَقْطَتُهُ، ولاَ بُطْؤُهُ عَمَّا الإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، ولاَ إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ».

فمالك: لا يخاف رَهَقَه. والرهق: الجهل وخفّة العقل، وهو الكذب والعربدة. وأما السِّقاط فهو الخطأ والعثرة والزلّة ...[3]

---

١. لا يصحّ وُطئ الحسنان، وإنّما الصحيح ما أثبتناه، وللحسنين عليهما السلام يومئذٍ فوق العشرين (اليوسفي الغروي).

٢. نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي ٥ : ٣٠٧ .

٣. انظر وقعة صفين؛ ونهج البلاغة، لصبحي الصالح : ٤٨ الخطبة ٣، ٣٧٢؛ والكتاب رقم ١٣ من كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه .

هـذه هـي صفـات مالـك الـذي دخـل مشـاهد الإمـام عـليٍّ عليه السلام في قتالـه للناكثين في وقعـة الجمـل، وللقاسـطين في وقعـة صفين، شـارك فيها وهو يحمـل تلـك المناقب فضلاً عـن غيرهـا من قـدرات، وولجهـا بأشـعاره وأرجوزاته وخطبـه، وهي لا تقـل صولةً عن سـيفه، وجميعهـا راحـت تحكي لنـا بصيرتـه ووعيه وعقلـه وحكمتـه ومعرفته بـما يجري، وجرأتـه في الحـقّ وشـجاعته في الميادين، مبيّنةً صدقـه وإخلاصه وتفانيـه في خدمة مبادئه وقيمـه ومسـيرته الواضحـة الجليّـة، يُزينهـا ولاؤه للإمام عـليٍّ عليه السلام، وقد اتّصـف به وحمله عـن بصـيرة واعتقـاد بـه وبالحـقّ الذي يـدور معـه حيـث دار، فعليٌّ مـع الحقِّ والحـقُّ مع عليٍّ !

لقـد أجـاد الرجل في كلّ مـا قدّمه في هـذه المواقع، فمواقفـه وخطبه وكلماته وأشـعاره مـلأت أجـواء هـذه المشـاهد وخصوصـاً وقعة صفـين الوقعـة التـي كادت تحسـم الأمر وتطيـح بالقاسـطين الظالمين!

وقعة الجمل :

هنـاك بعيـداً عـن المدينـة المنـورة، وفي منطقـة الخُرَيبَـة مـن نواحي البـصرة في جنوب العـراق، وفي شـهر جمـادى الأولى أو جمـادى الآخـرة سـنة سـت وثلاثين هجريـة، وقف ذلـك الثلاثـي متمثـلاً بالصحـابي طلحـة بـن عبيـد الله والزبـير بـن العـوام، وعرفـوا بالناكثـين، وصـف لاحقهـم التاريـخُ بـه، حيـث فعلـوا نكثهم لبيعتهـم الإمـام عليٍّ عليه السلام، وجنّـدوا أتباعهـم ومـن والاهم حول جمـل كان يحمـل أمَّ المؤمنين عائشـة؛ ليعلنوا حربهم عـلى الإمـام عليٍّ عليه السلام في فتنـة خطيرة أزهقت فيهـا نفوس كثـيرة...! (أكثر مـن ١٠ آلاف)

مـن خطبـه عليه السلام يصـف فَعلَتَهـم ومؤامرتهـم بعـد أن وصـل خبرهـم إليـه: «فخرجُوا يجـرّون حُرْمَةَ رسـول الله صلى الله عليه وآله كـما تُجرُّ الأَمَةُ عنـدَ شرائها مُتوجهـينَ بها إلى البصرة، فَحَبَسَـا نِسَـاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِـمَا، وأَبْـرَزَا حَبِيـسَ رَسُـول الله صلى الله عليه وآله لَهُمَا ولغَيْرِهِمَـا فِي جَيْش مَـا مِنْهُمْ رَجُلٌ

إلّا وقَدْ أعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بالْبَيْعَةِ طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بهَا، وخُزَّان بَيْتِ مَال الْمُسْلِمِينَ وغَيْرِهِمْ مِنْ أهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً وَطَائِفَةً غَدْراً، فَوالله لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إلّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ بلاَ جُرْم جَرَّهُ لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْش كُلِّهِ؛ إذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، ولَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بلِسَان ولاَ بيَدٍ دَعْ مَا أنهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بهَا عَلَيْهِمْ».

«كلّ واحد منهما ـ أي: طلحة والزبير ـ يرجو الأَمرَ لهُ، ويَعْطِفُهُ عليه دون صاحبه، لا يَمُتّان إلى الله بحبل، ولا يَمُدَّان إليه بسبب ...».

ولــمّا أعلم عدداً من أصحابه بتحركهم هذا، قال محمد بن أبي بكر، وكان واحداً ممن دعاهم؛ ليُخبرهم بذلك: ما يريدون يا أمير المؤمنين؟ فتبسم عليه السلام، وقال: «يطلبون بدم عثمان»! فقال محمد: والله ما قتله غيرهم! ثمّ قال عليٌّ عليه السلام: «أشيروا عليَّ بما أسمع منكم القول فيه».

... وممّا أشار به ابنُ عباس «... وتكتب إلى أمِّ سلمة، فتخرج معك، فإنها لك قوة».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «بل أنهض بنفسي ومن معي في اتباع الطريق وراء القوم، فإن أدركتهم بالطريق أخذتهم، وإن فاتوني كتبت إلى الكوفة واستمددت الجند من الأمصار وسرت إليهم، وأما أمُّ سلمة فإنّي لا أرى إخراجها من بيتها كما رأى الرجلان إخراج عائشة».

ثمَّ نادى أمير المؤمنين عليه السلام في الناس: «تجهّزوا للسير؛ فإنَّ طلحة والزبير قد نكثا البيعة ونقضا العهد وأخرجا عائشة من بيتها يريدان البصرة لإثارة الفتنة وسفك دماء أهل القبلة». ثم رفع يديه إلى السماء، فقال عليه السلام: «اللهمّ إنَّ هذين الرجلين قد بغيا عليّ، ونكثا عهدي ونقضا عقدي وشاقّاني بغير حقٍّ منهما في ذلك. اللهمّ خذهما بظلمهما واظفرني بهما وانصرني عليهما! ...».

وقد اصطدمت جهود أمير المؤمنين عليه السلام في التوجه إلى البصرة حيث أوى إليها

الناكثون واتخذوها قاعدة لهم في الكيد، اصطدم هذا الجهد وهو في بدايته بمعارضة أبي موسى الأشعري والي الكوفة منذ أواخر خلافة عثمان ـ وكان عليه السلام وهو يستعد للذهاب للبصرة، قد أرسل إلى الكوفة كلاً من ابنه الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر وقيس بن سعد؛ لحمل أهلها على الخروج إلى المعركة في البصرة ـ وتمثّلت معارضة الأشعري ومخالفته بعدم التعاون وعدم نصرته وبتخذيل أهل الكوفة عن الانضمام لجنده عليه السلام، فأعلم الإمامُ عليه السلام أتباعه بموقف أبي موسى، فقام إليه مالك الأشتر، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّك قد بعثتَ إلى الكوفة رجلاً قبل هذين فلم أره أحكم شيئاً وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على غير ما تحب، ولست أدري ما يكون، فإن رأيت جعلت فداك أن تبعثني في إثرهم، فإنَّ أهل الكوفة أحسنُ لي طاعة، وإن قدمتُ عليهم رجوتُ أن لا يخالفني أحدٌ منهم! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلحق بهم على اسم الله عزَّ وجلَّ»! فأقبل الأشتر حتى دخل الكوفة، وقد اجتمع الناس بالمسجد الأعظم، فأخذ لا يمرُّ بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلّا دعاهم، وقال لهم: اتبعوني إلى القصر، فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس، فاقتحم القصر، وأبو موسى في المسجد الأعظم يخطب الناس ويثبّطهم عن نصرة عليٍّ عليه السلام وهو يقول: «أيها الناس هذه فتنة عمياء تطأ خطامها، النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، والساعي فيها خير من الراكب، إنها فتنة باقرة كداء البطن أتتكم من قبل مأمنكم، تدع الحليم فيها حيران كابن أمس، إنا معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أعلم بالفتنة، إنها إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت أسفرت».

وعمار والحسن وقيس يقولون له: اعتزل عملنا لا أمَّ لك وتنحَّ عن منبرنا.

وأبو موسى يقول لعمار: هذه يدي بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«ستكون بعدي فتنة، القاعد فيها خير من القائم».

فقال له عمار: إنّما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لك خاصة ستكون فتنة أنت فيها يا أبا موسى

قاعداً خير منك قائماً.

فبينا هم في الكلام، إذ دخل غلمان أبي موسى ينادون «يا أبا موسى، هذا الأشتر، أُخرج من المسجد».

ودخل عليه أصحاب الأشتر، فقالوا له: أُخرج من المسجد، يا ويلك أخرج اللهُ روحَك، إنك والله...

فخرج أبو موسى، وأنفذ إلى الأشتر أن أجِّلني هذه العشية. قال: قد أجَّلتُك، ولا تبت (ولا تبيتنَّ) في القصر هذه الليلة، واعتزل ناحية عنه. ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فأتبعهم الأشتر بمن أخرجهم من القصر، وقال لهم: إنّي أجَّلتُه (أخَّرتُه) فكفَّ الناس عنه ...

وهنا خطبة أُخرى للأشتر، وقد صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس، اصغوا لي بأسماعكم، وأفهموا لي بقلوبكم، إنَّ الله عزَّوجلَّ قد أنعم عليكم بالإسلام نعمةً لاتقدِّرون قدرها، ولاتؤدون شكرها، كنتم أعداءً؛ يأكل قويكم ضعيفَكم، وينتهب كثيرُكم قليلَكم، وتنتهك حرمات الله بينكم، والسبيل مخوف، والشرك عندكم كثير، والأرحام عندكم مقطوعة، وكل أهل دين لكم قاهرون، فمنَّ اللهُ عليكم بمحمدﷺ، فجمع شمل هذه الفُرقة، وألف بينكم بعد العداوة، وكثركم بعد أن كنتم قليلين، ثمَّ قبضه الله وحوله إليه، فحوى بعده رجلان، ثمّ ولي بعدهما رجل نبذ كتاب الله وراء ظهره، وعمل في أحكام الله بهوى نفسه، فسألناه أن يعتزل لنا نفسه، فلم يفعل وأقام على أحداثه، فاخترنا هلاكه على هلاك ديننا ودنيانا، ولا يبعد الله إلّا القوم الظالمين، وقد جاءكم الله بأعظم الناس مكاناً، وأعظمهم في الإسلام سهماً؛ ابن عمِّ رسول اللهﷺ، وأفقه الناس في الدين، وأقرأهم للكتاب، وأشجعهم عند اللقاء يوم البأس، وقد استنفركم فما تنتظرون؟!

أسعيد أم الوليد الذي شرب الخمر وصلى بكم على سكر وهو سكران منها،

واستباح ما حرمه الله فيكم؟ أيّ هذين تريدون؟! قبّح الله من له هذا الرأي!

ألا فانفروا مع الحسن ابن بنت نبيكم، ولا يتخلّف رجل له قوة، فوالله ما يدري رجل منكم مايضرُّهوما ينفعه، وإنّي لكم ناصح شفيق عليكم إن كنتم تعقلون أو تُبصرون، أصبحوا إن شاء الله غداً عادَّين مستعدّين، وهذا وجهي إلى ما هُنالك بالوفاء».

فكان لمالك ومن معه الأثر في توعية أهل الكوفة وبيان حقيقة ما يجري، فحصلت إجابتهم وتلبيتهم لدعوة الإمام عليه السلام، فتوجه مجاهدوهم إلى ذي قار حيث مقر الإمام وجنده، وراحوا يستمعون إلى خطبته عليه السلام، وما إن انتهى الإمام منها بالدعاء حين رفع يديه، فقال: «اللهمّ إنَّ طلحة والزبير قطعاني، وظلماني، وألَّبا عليَّ، ونكثا بيعتي، فاحلُل ما عقدا، وانكُث ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرهما المساءة فيما عمِلا وأمَّلا»! حتى قام الأشتر، فقال:

«الحمد لله الذي مَنَّ علينا فأفضل، وأحسن إلينا فأجمل، قد سمعنا كلامك يا أميرالمؤمنين، ولقد أصبت ووفِّقت، وأنت ابن عمّ نبينا وصهره، ووصيّه، وأول مصدّق به، ومصلٍّ معه، شهدت مشاهده كلَّها، فكان لك الفضل فيها على جميع الأُمّة، فمَن اتّبعك أصاب حظَّه، واستبشر بفَلَجِه، ومَن عصاك، ورغب عنك، فإلى أمّه الهاوية! لعمري يا أمير المؤمنين، ما أمر طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه، وفارقا على غير حدث أحدثتَ، ولا جور صنعتَ، فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان، فليُقيدا من أنفسهما؛ فإنّهما أولُ من ألَّب عليه، وأغرى الناسَ بدمه، وأشهد اللهَ لئن لم يدخلا فيما خرجا منه، لنُلحقنَّهما بعثمان، فإنَّ سيوفنا في عواتقنا، وقلوبَنا في صدورنا، ونحن اليوم كما كنّا أمس. ثمّ قعد»!

وهناك كلام قريب من هذا، بعد الفراغ من خطبة أميرالمؤمنين عليه السلام وفيه تسكين لفورته عليه السلام، وذلك حين قام الأشتر فقال: «خفَّض عليك يا أميرالمؤمنين؛ فوالله ما أمر

طلحة والزبير علينا بمُخيل (بمُحيل) ولقد دخلا في هذا الأمر اختياراً، ثمَّ فارقانا على غير جور عملناه، ولا حدثٍ في الإسلام أحدثناه، ثم أقبلا يُثيران الفتنة علينا تائهَين جائرَين، ليس معهما حجّة تُرى ولا أثر يُعرف؛ لقد لبسا العارَ، وتوجها نحو الديار، فإن زعما أنَّ عثمان قتل مظلوماً، فليستقد آلُ عثمان منهما. فأشهد أنّهما قتلاه، وأُشهد الله يا أمير المؤمنين عليه السلام لئن لم يدخلا فيما خرجا منه، ولم يرجعا إلى طاعتك، وما كانا عليه لنُلحقنَّهما بابن عفان».

وكما أنَّ الأشتر كان جريئاً صريحاً مخلصاً في خطبه وفي دعوته لنصرة الإمام عليٍّ عليه السلام في معركة الجمل، كان أيضاً في ميدان القتال حين كان أولاً على ميمنة الإمام عليه السلام في رحلته إلى القوم الناكثين، ثمَّ كان على ميسرة جيشه في ألف رجل ومعه في نفسه عشرة آلاف رجل، أو على اليمن في الميمنة، وقبل احتدام القتال، إذا بصائح من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يُحذّر شباب قريش المنضمين في جند الناكثين من الأشتر، وذلك حين تصاف الناس يوم الجمل، كما في الخبر، «صاح صايح من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا معاشر شباب قريش! أراكم قد لَجَجتُم وغُلبتُم على أمركم هذا، وإنّي أنشدكم الله أن تحقنوا دماءكم ولا تقتلوا أنفسكم، اتقوا الأشترَ النخعيَّ...، فإنَّ الأشتر نشر (يشمّر) درعه حتى يعفُو أثره (يقفوا) تتبعوا أثرُه...

ولمّا التقى الناس صفّين تقدم الأشتر بين الجمعين وهو يزأر كالأسد عند فريسته، ويقول في ذلك شعراً، فخرج إليه من أصحاب الجمل رجل يقال له عامر بن شداد الأزدي، وأجابه على شعره، فحمل عليه الأشتر فقتله، ثمَّ نادى فلم يُجبه أحدٌ فرجع؛ ليعود أخرى ومرات، وذلك حين أقبل الأشتر وجندب بن زهير العامري قبال الجمل يرفلان في السلاح، ويجولان في ميدان الحرب، حتى قتلا عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ومعبد بن زهير بن خلف بن أمية، وعمد جندب لابن الزبير فلمّا عرفه قال: أتركك لعائشة ...».

وراح الأشتر على عادته يجول في ساحته فرأى رجلاً خرج من عسكر البصرة يُعرف بخبّاب بن عمرو الراسبي، وهو يرتجز:

أضربهم ولو أرى عليًّا عمّمتُه أبيضَ مشرفيّا
أريح منه معشراً غويّا

قصده فقتله.

وهكذا حين تقدّم كعب بن سور الأزدي حتى أخذ بخطام الجمل وجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها:

يا معشر الناس عليكم أمّكم فإنها صلاتكم وصومكم
والرحمة العظمى التي تعمّكم ...

قال: فحمل عليه الأشتر فقتله، وخرج من بعده غلام من الأزد يقال له وائل بن كثير فجعل يتلو ويقول شعراً، فبرز إليه الأشتر مجيباً له وهو يقول شعراً، ثمّ حمل عليه الأشتر فقتله.

وخرج من بعده عمرو بن خنفر من أصحاب الجمل وهو يقول شعراً، ثمّ حمل عليه الأشتر فقتله. وخرج من بعده عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية، فجعل يلعب بسيفه بين يدي عائشة وهو يقول شعراً. قال: فبدر إليه الأشتر مجيباً له، ثمّ حمل عليه فضربة ضربة رمى بيمينه فسقط لما به، وثنّاه الأشتر بضربة أخرى فقتله. ثمّ جال في ميدان الحرب وهو يقول شعراً، ثمّ رجع الأشتر إلى موقفه.

وما إن تقدم عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وهو من أشراف قريش ـ وكان اسم سيفه «ولول» ـ فارتجز، فقال:

أنـا ابـنُ عتّـابٍ وسـيفي ولـول والمـوتُ دون الجمـل المجلَّـل

حتـى حمـل عليـه الأشـتر فقتلـه. ثـمّ خرج عبـد الله بـن حكيم بـن حـزام، من بنـي أسـد بن عبد العـزى بن قصي، مـن أشراف قريـش أيضاً، فارتجـز وطلب المبـارزة، فخرج إليـه الأشـتر، فضربه على رأسـه فصرعـه ... وهكـذا وهكـذا حتى تهالك القـوم دفاعاً عن الجمل وعمّـن عليه!

وعـن ابـن أبي الحديـد أنهـم قالـوا: اسـتدار الجمـل كـما تـدور الرّحـا، وتكاثفـت الرجـال مـن حولـه، واشـتدّ رُغـاؤه، واشـتدَّ زحـام النـاس عليـه، ونـادى الحُتات المجاشـعي: أيّهـا النـاس! أمّكـم أمّكـم! واختلـط النـاس، فـضرب بعضهـم بعضـاً، وتقصّـد أهل الكوفة قصـد الجمـل، والرجـال دونـه كالجبـال، كلـّما خـفَّ قـوم جـاء أضعافهـم، فنادى عـليٌّ عليه السلام:

«ويحكـم! ارشـقوا الجمـل بالنَّبـل، اعقـروه لعنـه الله»! فرُشـق بالسـهام، فلـم يبق فيه موضـع إلّا أصابـه النَّبـل، وكان مُتَجَفجفاً، فتعلَّقت السـهام بـه، فصار كالقنفـذ، ونادت الأزد وضبّـة: يـا لثـارات عثـمان! فاتخذوهـا شـعاراً، ونـادى أصحاب عـليٍّ عليه السلام يـا محمد! فاتخذوهـا شـعاراً، واختلـط الفريقـان، ونادى عـليٌّ عليه السلام بشعار رسـول الله صلى الله عليه وآله: يـا منصور أمـت! وهـذا في اليـوم الثـاني من أيـام الجمل، فلـمّا دعا بهـا تزلزلت أقـدام القـوم، وذلك وقت العـصر، بعـد أن كانـت الحـرب مـن وقـت الفجر...

وعن الواقدي أنه روى أنَّ شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم:

«حم لا ينصرون، اللهمّ انصرنا على القوم الناكثين»!

وهكذا توالت نداآته عليه السلام، وكان منها:

«اعقروا الجمل فإنّه شيطان»!

... فكان آخر من أخذ بزمام الجمل رجل من بني ضَبّة، فجعل يقول:

نحن بني ضبّـة أصحاب الجمل ننعي ابنَ عفان بأطراف الأسـل
ردوا إلينا شيخنا ثمّ بجل

فبرز إليه الأشتر وهو يقول:

كيـف نـرد نعثـلاً وقـد قحـل سـارت بـه أمُّ المنايـا ورحـل

وضربه على هامته ففلقها فخرَّ صريعاً...

تقول عائشة: فما زلتُ في عزٍّ حتى فقدتُ أصوات بني ضبَّة!

فـلاذ بالجمل عبـد الله بـن الزبير وتنـاول خطامه بيـده، فقالت عائشـة: مَن هـذا الذي أخـذ بخطـام جملي؟ قـال: أنـا عبد الله ابـن أختك.

فقالت: واثكل أسماء!

ثـمّ برز الأشـتر إليـه، فخلّى الخطـام من يـده وأقبل نحوه، فقـام مقامـه في الخطام عبد أسـود، واصطـرع عبـد الله والأشـتر فسـقطا إلى الأرض، فجعـل ابـن الزبير يقـول: وقد أخذ الأشـتر بعنقـه، ينادي:

اقتلوني ومالكاً، واقتلوا مالكاً معي!

قال الأشـتر: فـما سرّني إلّا قولـه مالك، لو قال: الأشـتر؛ لقتلـوني، ووالله لقد تعجّبت مـن حمـق عبـد الله؛ إذ ينادي بقتله وقتـلي، ومـا كان ينفعـه المـوت إن قتلتُ وقتـل معـي، ولم تلـد امـرأةٌ مـن النخـع غـيري، فأفرجـتُ عنـه، فانهـزم، وبـه ضربـة مثخنـة في جانب وجهه ...

فلـما تفـرّق النـاس عـن الجمـل، أشـفق أمير المؤمنين عليه السلام أن يعـودوا إليـه فتعود الحرب فقـال عليه السلام: «عرقبـوا الجمـل»! فتبـادر إليـه أصحاب علي عليه السلام فعرقبـوه ووقـع لجنبـه، وصاحـت عائشـة صيحـة أسـمعت مـن في العسـكرين!...

ولـه مـع أمِّ المؤمنـين عائشـة لقـاء حـين جاءهابعـد أن عُقـر الجمـل وانتهـت المعركة، وقـال لها:

الحمـد لله الـذي نـصر وليّـه وكبـت عـدوّه، جـاء الحـقُّ وزهق الباطلُ إنَّ الباطـل كان زهوقـاً، كيـف رأيـتِ صنع الله بـك يا عائشـة؟ فقالت: من أنـت ثكلتك أمُّك؟ فقـال: أنا ابنـك الأشـتر. قالـت: كذبتَ لسـتُ بأمّك. قـال: بـلى وإن كرهت.

فقالـت: أنـت الـذي أردتَ أن تُثـكل أختي أسـماء بابنهـا؟! فقـال: المعـذرة إلى الله ثمَّ إليـكِ، والله إنّي لـو لا كنـت طاويـاً ثلاثـةً لأرحتُـك منـه! وأنشـأ يقـول بعد الصـلاة على الرسول:

أعائـشُ لولا أنّنـي كنـتُ طاوياً ثلاثاً لغادرتِ ابـن أختك هالكاً
غـداةَ ينـادي والرمـاح تنوشـه بآخـر صـوت: اقتلـوني ومالكاً

فبكت وقالت: فخرتُم وغلبتُم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾

وعـن الواقـدي:.. فـبرز أول الناس عبـد الله بـن الزبـير، ودعـا إلى المبـارزة، فـبرز إليه الأشـتر، فقالـت عائشـة: مـن بـرز إلى عبـد الله؟ قالـوا: الأشـتر، فقالـت: واثُكلَ أسـماء! فـضرب كلٌّ منهـما صاحبـه فجرحـه، ثـمّ اعتنقـا، فـصرع الأشـترُ عبـدَ الله، وقعـد عـلى صـدره، واختلـط الفريقـان؛ هـؤلاء لينقـذوا عبـد الله، وهـؤلاء ليعينـوا الأشـتر، وكان الأشـتر طاويـاً ثلاثة أيـام لم يُطعم، وهـذه عادته في الحرب، وكان أيضاً شـيخاً عالي السـنّ، فجعـل عبـد الله ينـادى: اقتلوني ومالـكاً...

فلـو قـال: اقتلوني والأشـتر لقتلوهمـا، إلّا أنَّ أكثر مـن كان يمرُّ بهـما لا يعرفهما؛ لكثرة مـن وقـع في المعركـة صرعى بعضهـم فوق بعـض، وأفلت ابن الزبـير من تحتـه أو لم يكد، فذلك قول الأشـتر:

أعائـشُ لـو لا أنّنـي كنـت طاويـاً ثلاثـاً لألفيتِ ابـن أختـك هالكاً

غـداةَ ينـادي والرجـال تحـوزه بأضعف صوت: اقتلوني ومالكاً!
فلـم يعرفـوه إذ دعاهـم وغمّـه خِـدَبٌّ عليـه في العَجاجـة بـاركاً
فنجّـاه منّـي أكلُـه و شـبابه وأنّيَ شـيخٌ لم أكـن متماسـكاً

وروى أبـو مخنـف عن الأصبغ بن نباتـة: دخل عمّار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشـتر عـلى عائشـة بعـد انقضاء أمـر الجمـل، فقالت عائشـة: يا عمار! مـن معك؟ قال: الأشـتر. فقالـت: يـا مالـك! أنـت الـذي صنعت بابـن أختي مـا صنعـت؟ قال: نعـم، ولـو لا أنّي كنـت طاويـاً ثلاثـة أيـام؛ لأرحـتُ أمّة محمـد منه! فقالـت: أما علمـتَ أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «لا يحـلّ دمُ مسـلم إلّا بأحـد أمـور ثـلاث: كفر بعـد الإيـمان، أو زناً بعـد إحصان، أو قتل نفـس بغـير حـقٍّ»! فقـال الأشـتر: عـلى بعـض هـذه الثلاثـة قاتلنـاه يـا أمَّ المؤمنين، وأيـمُ الله مـا خانني سـيفي قبلهـا، ولقد أقسـمتُ ألّا يصحَبنـي بعدها.

قال أبو مخنف: ففي ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذي ذكرناه:

وقالت: على أيّ الخصال صرعته؟! بقتل أتـى، أم رِدّة لا أبـا لـكا!
أم المحصن الزاني الـذي حلَّ قتلـه فقلـتُ لها: لا بدَّ مـن بعض ذلكا.[1]

وقعة صفين:

بغـي آخر، وهـذه المرّة من القاسـطين، حيـث الطلقـاء وأتباعهم، يقودهـم معاوية بن

١. كتـاب الجمـل، للشـيخ المفيـد، استشـارة أمير المؤمنـين أصحابـه ٢٣٩ـ٢٥١، ٢٤١ـ٢٥٦، ٢٦٩، ٣٦٢،٣٦٤،٣٧٠، وفي وقعـة الجمـل، لمحمد بن زكريـا بن دينار الغلابي البـصري (ت٢٩٨هجرية) بروايـة محمـد بـن يحيـى بـن عبـد الله بـن العبـاس الصـولي (ت٣٣٥هجريـة) تحقيـق الشـيخ محمـد حسـن آل ياسـين، مطبعـة المعـارف، بغـداد سـنة ١٣٩٠هجرية ـ ١٩٧٠م: ٤٣ - ٤٤؛ ونهـج البلاغـة، صبحـي الصالـح، الخطبتـان: ١٧٢، ١٤٨؛ وفي شرح نهـج البلاغة، لابن أبي الحديـد ١: ٢٦٢ـ٢٦٥، ٣٠٩ـ٣١١، ١٤: ٢١؛ والفتـوح، لابـن الأعثـم ٢: ٤٧٩ـ٤٨٠؛ وتاريـخ الطـبري ٤: ٤٨٦ـ٤٨٧؛ والكامـل، لابن الأثـير ٣: ١١٨.

أبي سفيان، ومستشاره عمرو ابن العاص، ذو الكيد العظيم ... ولعلّ مالكاً الأشتر هو صاحب الساعة الأخيرة في هذه المعركة تلك التي لو بقيت كما تمنّاها؛ وبذل قصارى جهده من أجلها؛ لتغيّر وجه تلك المرحلة من التاريخ، وما بعدها!!

لقد تفرّد وامتاز بدوره فيها، وهو القائل:

بقَّيتُ وفري وانحرفتُ عن العُلا ... ولقيتُ أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشنّ على ابن حرب غارةً ... لم تخل يوماً من نهاب نفوس

حتى سجّل له التاريخ مواقف عديدة حازمة ...

يقول الذهبي: وكاد أن يهزم معاوية، فحمل عليه أصحاب عليٍّ عليه السلام لما رأوا مصحف جند الشام على الأسنة يدعون إلى كتاب الله، وما أمكنه مخالفة عليٍّ عليه السلام؛ فكفَّ ...! نراه في صفين، كما في الخبر؛ وقد خرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب، عليه السلاح لا يرى منه إلّا عيناه، وبيده الرمح، فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بالقناة، ويقول: سوّوا صفوفكم رحمكم الله! حتى إذا عدل الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولّى أهل الشام ظهره، ثمّ حمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمٍّ نبيه، أقدمهم هجرةً، وأولهم إسلاماً، سيف من سيوف الله على أعدائه، فانظروا إذا حمي الوطيس، وثار القتام، وتكسَّر المران، وجالت الخيل بالأبطال، فلا أسمع إلّا غمغمة أو همهمة، فاتبعوني وكونوا في أثري!

ثمّ حمل على أهل الشام فكسر فيهم رمحه، ثمّ رجع فإذا هو الأشتر!

وفي خبر نصر: وأقبل الأشتر على فرس كميت محذوف، وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يا معشر المؤمنين، فقد حمي الوطيس، ورجعت الشمس من الكسوف، واشتد القتال، وأخذت السباع بعضها بعضاً. فهم كما قال الشاعر:

مضت واستأخر القرعاء عنها وخلى بينهم إلّا الوريع

يقول واحد لصاحبه في تلك الحال: أيّ رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه: وأيّ نية أعظم من هذه ثكلتك أمّك وهبلتك! إنّ رجلاً كما ترى قد سبح في الدم، وما أضجرته الحرب، وقد غلت هام الكماة من الحر، وبلغت القلوب الحناجر، وهو كما تراه جذعاً يقول هذه المقالة: اللهمّ لا تبقنا بعد هذا!

وكان من مواقفه :

موقفه من جرير بن عبد الله البجلي الذي أرسله الإمام عليه السلام بكتاب إلى معاوية، وقد وقَّت له وقتاً لا يقيم بعده إلّا مخدوعاً أو عاصياً . فأبطأ عليه حتى اتّهمه الناس. يقول الخبر: ولمّا رجع جرير إلى عليٍّ عليه السلام كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند عليٍّ عليه السلام فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين عليه السلام لو كنتَ أرسلتني إلى معاوية؛ لكنتُ خيراً لك من هذا الذي أرخى من خناقه، وأقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو رَوحه إلّا فتحه، أو يخاف غمَّه إلّا سدَّه!

فقال جرير: والله لو أتيتَهم لقتلوك ـ وخوَّفه بعمرو، وذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم ـ وقد زعموا أنّك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيته والله يا جرير لم يُعيني جوابُها، ولم يثقل عليَّ محملها، ولحملت معاوية على خُطّة أعجِله فيها عن الفكر. قال: فائتهم إذاً. قال: الآن وقد أفسدتَهم ووقع بينهم الشرّ؟!

وفي خبر آخر: اجتمع جرير والأشتر عند عليٍّ عليه السلام، فقال الأشتر: أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً، وأخبرتك بعداوته وغشّه؟ وأقبل الأشتر يشتمه ويقول : يا أخا بجيلة، إنَّ عثمان اشترى منك دينك بهمَذان. والله ما أنت بأهل أن تمشي فوق الأرض حيًّا. إنّما أتيتَهم؛ لتتخذ عندهم يداً بمسيرك إليهم، ثمّ رجعتَ إلينا من عندهم تُهددنا بهم! وأنت والله منهم، ولا أرى سعيك إلّا لهم، ولئن أطاعني فيك

أميرُ المؤمنين؛ ليحبسنّك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستبين هذه الأمور، ويُهلك الله الظالمين! قال جرير: وددت والله أنّك كنت مكاني بُعثت، إذاً والله لم ترجع!...

وراح الأشتر يردُّ على ما كان من تخويف جرير إيّاه بعمرو وحوشب ذي ظُليم، وذي الكلاع قائلاً:

لعمرك يا جرير لقول عمرو ... وصاحبه معاوية الشآمي
وذي كلع وحوشب ذي ظليم ... أخفُّ عليّ من زفّ النعام
إذا اجتمعوا عليّ فخلِّ عنهم ... وعن باز مخالبه دوام
فلست بخائفٍ ما خوّفوني ... وكيف أخاف أحلام النيام
وهمّهم الذي حاموا عليه ... من الدنيا وهمّي ما أمامي
فإن أسلم أعمّهم بحرب ... يشيب لهولها رأس الغلام
وإن أهلك فقد قدّمت أمراً ... أفوز بفلجه يوم الخصام
وقد زأروا إليّ وأوعدوني ... من ذامات من خوف الكلام.[1]

وكان للأشتر موقف آخر، وذلك لمّا قام عليٌّ عليه السلام خطيباً على منبره حين حرّض الناس وأمرهم بالمسير إلى صفين لقتال أهل الشام، وقد بدأ فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

«سيروا إلى أعداء الله! سيروا إلى أعداء السنن والقرآن! سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار!». فقام رجل من بني فزارة يقال له أربد، فقال: أتريد أن تسيّرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم. كلاّ، ها الله إذاً لا نفعل ذلك! فقام الأشتر فقال: مَن لهذا أيّها الناس؟ وهرب الفزاري، واشتدَّ الناس على أثره، فلُحق بمكان من السوق تباع فيه البراذين، فوطئوه بأرجلهم

١. وقعة صفين، لنصر بن مزاحم ١: ٥٩ـ٦١؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي: ترجمة الأشتر؛ شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٠٧،٢١٣ مع الهامش.

وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل.

فأُتي عليٌّ عليه السلام، فقيل: يا أمير المؤمنين، قتل الرجل. قال: ومن قتله؟ قالوا: قتلته همدَانُ وفيهم شوبة من الناس. فقال: قتيل عِمّيَّةٍ لا يُدرى من قتله! دِيته من بيت مال المسلمين.

وقال علاقة التيمي:

أعوذ بربي أن تكون منيتي ... كهامات في سوق البراذين أربدُ
تعاوره همدَانُ خفق نعالهم ... إذا رفعت عنه يد وضعت يدُ

وقام الأشتر فحمد الله وأثنى عليه فقال: «يا أمير المؤمنين عليه السلام، لا يهدنَّك ما رأيت، ولا يؤيسنَّك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن. جميع من ترى من الناس شيعتك، وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك، ولا يحبون بقاءً بعدك. فإن شئتَ فسر بنا إلى عدوك. والله ما ينجو من الموت من خافه، ولا يُعطى البقاء من أحبَّه، وما يعيش بالآمال إلّا شقيٌّ. وإنّا لعلى بيّنة من ربّنا أنَّ نفساً لن تموت حتى يأتي أجلها، فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس، فأسخطوا الله، وأظلمت بأعمالهم الأرض، وباعوا خَلاقهم بعرض من الدنيا يسير»!

فقال علي عليه السلام:

«الطريق مشترك، والناس في الحقِّ سواء، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فله ما نوى وقد قضى ما عليه». ثمّ نزل فدخل منزله ...

معركة نهر الفرات:

وقد كان لمالك بن الأشتر دور كبير في هذه المعركة التي كان سببها استيلاء معاوية وجنده على الفرات وصدّهم عن أن يستفيد من مائه جيش الإمام عليٍّ عليه السلام، وإصرار

معاويـة عـلى حرمـان هـذا الجيـش عـلى الرغم مـن معارضـة بعـض ونصيحة آخـر، فقد ذكـروا أنّـه لماغلب أهل الشـام على الفرات فرحوا بالغلبـة، فقـال معاويـة: ياأهل الشـام، هـذا والله أول الظفـر، سـقاني الله ولا سـقى أبـا سـفيان إن شربـوا منـه أبـداً حتـى يقتلوا بأجمعهـم عليـه. وتبـاشر أهل الشـام، فقـام إلى معاويـة رجـل مـن أهل الشـام[همداني]، يقـال لـه المعـري بـن الأقبـل وكان ناسـكاً، وكان لـه ـ فيـما تذكـر همـذان ـ لسـان، وكان صديقـاً ومؤاخياًلعمـرو بـن العاص، فقـال: يا معاويـة! سـبحان الله! الآن سـبقتم القوم إلى الفـرات، فغلبتموهـم عليـه تمنعونهـم عنـه؟! أمـا والله لو سـبقوكم إليه لسـقوكم منه. أليـس أعظـم مـا تنالـون مـن القـوم أن تمنعوهم الفـرات، فينزلـوا عـلى فرضـة أخـرى، فيجازوكـم بـما صنعتم؟ أمـا تعلمـون أنَّ فيهم العبد والأمـة والأجـير والضعيف ومن لا ذنـب لـه. هـذا والله أول الجـور! لقد شـجّعت الجبان، وبـصّرت المرتـاب، وحملت من لا يريـد قتالك عـلى كتفيك. فأغلظ لـه معاوية، وقال لعمـرو: اكفني صديقـك. فأتاه عمرو فأغلـظ، فقـال الهمـداني في ذلك:

لعمـرو أبى معاوية بن حرب ... وعمـرو مـا لدائهـا دواء
سـوى طعن يحـار العقل فيه ... وضرب حـين يختلـط الدماء
فلسـت بتابـع دين ابـن هند ... طوال الدهر ما أرسـى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب ... قـد ذهـب الـولاء فـلا ولاء
وقـولي في حـوادث كل أمـر ... على عمـرو وصاحبـه العفاء
ألا لله دَرّك يـا ابـن هنـد ... لقـد برح الخفاء فـلا خفـاء
أتحمون الفرات عـلى رجـال ... وفي أيديهـم الأسـل الظـماء
وفي الأعنـاق أسـياف حداد ... كأنّ القـوم عندهـم نسـاء
فترجـو أن يجاوركـم عـليٌّ ... بـلا مـاء وللأحـزاب مـاء
دعاهـم دعـوةً فأجـاب قومٌ ... كجرب الإبـل خالطها الهناء

ثمّ سار الهمداني في سواد الليل، فلحق بعليٍّ عليه السلام.

ثـمَّ إنَّ عمـرو بـن العـاص كان معارضاً لمنـع ماء الفـرات عن أهـل العـراق، وقد بيّن لمعاويـة موقفـه هـذا حـين أرسـل إلى معاويـة: أن خـلّ بين القـوم وبين المـاء، أتـرى القوم يموتون عطشـاً، وهـم ينظـرون إلى الماء؟!

وحـين قـال له أيضاً: خـلّ بينهم وبـين الماء، فـإنَّ عليّاً عليه السلام لم يكـن ليظمأ وأنـت ريّان، وفي يـده أعنّـة الخيـل، وهـو ينظـر إلى الفرات حتـى يـشرب أو يمـوت، وأنـت تعلـم أنّـه الشـجاع المطـرق، ومعـه أهل العـراق وأهـل الحجاز، وقد سـمعته أنـا وأنت وهـو يقول: لـو اسـتمكنتُ مـن أربعـين رجـلاً؟ فذكر أمـراً. يعني لـو أنَّ معـي أربعين رجـلاً يوم فتّـش البيـت، يعني بيـت فاطمة!

ولكنَّـه، ومـع نصائحـه هـذه لمعاويـة، كان ممن حـال بين الفـرات وبين أن يـشرب منه أهـل العـراق، حتـى جاء عـن جابر قال: سـمعت تميـماً الناجي، قال: سـمعت الأشـعث بـن قيـس يقـول ـ يـوم حـال عمرو بـن العـاص بيننـا وبـين الفـرات ـ: ويحك يـا عمرو، والله إن كنـت لأظـنُّ لـك رأياً، فـإذا أنت لا عقل لـك، أتُرانـا نُخلّيك والمـاء، تربت يداك وفمُـك! أمـا علمتَ أنّـا معشرُ عُرب، ثكلتك أمُّـك وهبلتك، لقد رمتَ أمـراً عظيماً! فقال لـه عمـرو: أمـا والله لتعلمـنّ اليـوم أنا سـنفي بالعهـد، ونقيم عـلى العقد، ونلقـاك بصبر وجـد. فنـاداه الأشـتر: والله لقـد نزلنا هـذه الفرضة يـا بن العـاص، والنـاس تريد القتال، عـلى البصائـر والدين، وما قتالنا سـائر اليـوم إلّا حميّة. ثم كبّر الأشـعث وكبر الأشـتر، ثمّ حملا، فـما ثار الغبـار حتى انهـزم أهل الشـام...

وكانـت للأشـتر حملـةٌ عـلى عمـرو بـن العـاص يوم الفـرات، فعن إسـماعيل السـدّي يقول:

والله لـكأنّي أسـمع الأشـتر، وهـو يحمـل عـلى عمـرو بـن العاص يـوم الفـرات، وهو يقول:

ويحك يا ابن العاصي تنحَّ في القواصي
واهرُب إلى الصياصي اليوم في عِراص
نأ خذ با لنو ا صي لا نحذر التناصي
نحن ذ و ا لخِما ص لا نقرب المعاصي
في الأدرُع الدِّلاص في الموضع المُصاص

فأجابه عمرو بن العاص:

ويحك يا ابن الحارث أنت الكذوب الحانث
أنت الغرير الناكث أعِدَّ مال الوارث
وفي القبور ماكث

عن بكر بن تغلب قال: حدثّني من سمع الأشتر يوم الفرات، وقد كان له يومئذٍ غناء عظيم من أهل العراق، وهو يقول:

اليوم يوم الحفاظ بين الكماة الغلاظ
نحفزُها والمِظاظ

هذا وقد سجل الأشتر فيها موقفاً آخر لعلّه هو الأكبر، قتل فيها عدداً من كبار فرسان جند الشام، وذلك لما غلب معاوية وجنده على ماء الفرات، وحالوا بين أهل العراق وبينه، وبقي أصحاب عليٍّ عليه السلام يوماً وليلةً بغير ماء، واغتمَّ عليٌّ عليه السلام بما فيه أهل العراق من العطش ... ثم قام الأشتر يحرّض أصحابه؛ فراح مرّةً يدعو الحارث بن همام النخعي، فأعطاه لواءه ثمّ قال: يا حارث لولا أنّي أعلم أنَّك تصبر عند الموت؛ لأخذتُ لوائي منك، ولم أحبُك بكرامتي.

فأجابه الحارث: والله يا مالك؛ لأسرنَّك اليوم أو لأموتنَّ. فاتَّبعني، فتقدَّم وهو يقول:

يا أشتر الخير ويا خيرَ النخع وصاحب النصر إذا عمَّ الفزع

وكاشـف الأمـر إذا الأمـر وقـع ما أنت في الحرب العوان بالجذع
قد جـزع القـوم وعمّـوا بالجزع وجرّعوا الغيـظ وغصّوا بالجرع
إن تسـقنا المـاء فـما هـي بالبـدع أو نعطـش اليـوم فجُنـد مقتطع
ما شئت خُذ منّا وما شئت فدع

فقـال الأشـتر: أدنُ منّـي يـا حارث، فدنـا منه فقبّل رأسـه، وقـال: لا يتبع رأسـه اليوم إلّا خَـيِّر. أو (لا يتبـع هذا اليـوم إلّا خيراً).

وأخـرى يلتفـت إلى أصحابـه جميعـاً ـ وهـو يومئـذٍ عـلى فرس له محـذوف أدهـم كأنه حلـك الغـراب ـ ويصيح فيهم: فدتكم نفسي، شـدّوا شـدّة المُحـرج الراجي الفـرج، فإذا نالتكـم الرماحُ، فالتـووا فيها، وإذا عضَّتكم السـيوفُ، فليعضّ الرجل نواجذه، فإنّه أشـدّ لشـؤون الرأس، ثمّ اسـتقبلوا القـوم بهاماتكم!

الأشتر والفرسان السبعة :

ولكـنَّ أهـل الشـام لم يثبتـوا، وهـم يرون الأشـتر يومئـذٍ على فـرس له محـذوف أدهم كأنّـه حَلـك الغـراب يجـول في عمـق سـاحتهم، وكبار فرسـانهم يتسـاقطون حتـى كانت حصـة الأشـتر منهـم هـي الأكثـر، ففـي خـبر عـن صعصعـة بـن صوحـان، قـال: وقتل الأشـتر في تلـك المعركة سـبعةً ...

لقـد قتـل عـدداً من فرسـان جنـد الشـام، وأولهـم رجل يقـال لـه: صالح بـن فيروز، وكان مشـهوراً بشـدّة البـأس، وقـد ارتجـز على الأشـتر قائلاً:

يـا صاحب الطِّرف الحصان الأدهم أقـدم إذا شـئتَ علينـا أقـدم
أنـا ابـن ذي العـزِّ وذي التكـرُّم سـيّدِ عـكٍّ كلِّ عـكٍّ فاعلـم

فبرز إليه الأشتر، وهو يقول:

آليـتُ لا أرجـع حتـى أضربـا بسـيفيَ المصقـول ضربـاً مُعجباً

أنـا ابـنُ خـير مَذحـج مُركَّبـا مـن خيرهـا نفسـاً وأمًّـا وأبَـا

ثـمّ شـدَّ عليـه بالرمح فقتلـه وفلق ظهـره، ثمَّ رجـع إلى مكانـه! فخرج إليـه مالك بن أدهم السـلماني، وهـو يقول:

إنّي منحـتُ مالـكاً سِـنانيا أُجيبُـه بالرّمـح إذ دَعانيـا
لفارس أمنحه طِعانيا

وشـدَّ عـلى الأشـتر فلما رهقـه التوى الأشـتر على الفـرس، ومار السـنان فأخطـأه. ثمّ استوى على فرسـه، وشـدَّ مالك عليـه بالرمح، وهـو يقول:

خانـك رمـحٌ لم يكـن خوَّانا وكان قدمـاً يقتـل الفُرسـانا
لويتَـه لخـير ذي قحطانَـا وفـارس يخـترمُ الأقرانـا
أشهل لا وغلاً ولا جَبانَا

فقتله.

ثمّ برز إليه فارس آخر يقال له رياح بن عتيك الغساني وهو يقول:

إنّي زعيـم مالـكٍ بـضربِ بـذي غرارين جميـعُ القلـب
عبـلُ الذراعـين شـديدُ الصُّلب (أو شديد العصب).

فارتجز له الأشترُ:

رُويـدَ لا تجـزع مـن جـلادي جـلاد شـخص جامع الفؤادِ
يجيـبُ في الـروع دُعـا المَنـادي يشَـدُّ بالسـيف عـلى الأعادي

فشدَّ عليه فقتله.

وارتجز له فارس آخر يقال له إبراهيم بن الوضّاح الجمحي:

هـل لك يـا أشـترُ في برازي براز ذي غَشـم وذي اعتزاز
مقاوم لِقرنه لزَّاز

فأجابه الأشتر قائلاً:

نعـم نعـم أطلبـه شـهيدا معـي حسـامٌ يقصـمُ الحديـدا
يترك هاماتِ العِدى حصيدا

فقتله.

ثـمّ خـرج إليـه فـارس آخـر يقـال لـه زامـل بـن عبيـد الخزامـي وكان مـن أصحاب الألويـة، فشـدَّ عليـه وهـو يقول:

ياصاحب السيف الخضيب المرسـب وصاحـب الجوشـن ذاك المُذهـبِ
هـل لـك في طعـن غـلام مجـرب يحمـل رُمحـاً مسـتقيم الثعلـبِ
ليس بحيّاد ولا مغلَّبِ

فطعـن الأشـتر في موضع الجوشـن، فصرعـه عن فرسـه، ولم يُصب مقتلاً، وشـدَّ عليه الأشـتر راجلاً، فكسـف قوائـم الفرس بالسـيف وهو يقول:

لا بـدَّ مـن قتـلي أو مـن قتلكا قتلتُ منكم خمسـةً مـن قبلكا
وكلُّهم كانوا حُماةً مثلكا

ثمّ ضربه بالسيف وهما راجلان ...

ثـمّ خـرج إليـه فارس يقال لـه الأجلح بـن منصور الكنـدي، وكان من أعـلام العرب وفرسـانها، وكان عـلى فـرس يقال له لاحق، فلمّا اسـتقبله الأشـتر، كره لقاءه واسـتحيا أن يرجـع، فخـرج إليه... فشـدَّ عليه الأشـتر وهو يقول:

بُليـتَ بالأشـتر ذاك المذحجي بفـارس في حَلَـق مُدَجَّـج
كالليـثِ ليـثِ الغابـةِ المهيَّـج إذا دعـاه القِـرنُ لم يُعـرِّج

فضربه الأشتر فقتله.

وقالـت أختـه حُبلـة بنت منصـور ترثيه في أبيات سـبعة حـين أتاها مصابـه... وماتت حُزنـاً عليه:

ألا فابكـي أخـاً ثقـةً فقـد والله أبكينـا
لقتـل الماجـد القَمقـا م لا مثـلَ لـه فينـا
أتانـا اليـوم مقتلـه فقـد جُـزَّت نواصينـا
كريـم ماجـد الجديـن يشـفي مـن أعادينـا
وممّـن قـاد جيشـهم عـلي وآل مضلونـا
شـفانا الله مـن أهل ال عـراق فقـد أبادونـا
أمـا يخشـون ربّهـم ولم يرعـوا لـه دينـا

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما بلغه مرثيتها أخاها:

أمـا إنّهـن ليـس يملكن مـا رأيتم مـن الجـزع، أما إنّهـم قـد أضرّوا بنسـائهم فتركوهنّ خزايـا مـن قبـل ابن آكلـة الأكبـاد، اللهمّ حمّلـه آثامهـم وأوزارهـم وأثقالاً مـع أثقالهم.

ثـمّ خـرج إليه محمد بـن روضة الجمحي، وهـو يضرب في أهـل العراق ضربـاً منكراً، ويقول:

يـا سـاكني الكوفةِ يا أهـل الفتن يـا قاتـلي عثـمان ذاك المؤتَمـن
ورَّث صـدري قتلُـه طولَ الحزن أضربُكـم ولا أرى أبـا حسـن

فشدَّ عليه الأشتر، وهو يقول:

لا يبعـد اللهُ سـوى عُثمانـا وأنـزل اللهُ بكـم هوانـا
ولا يسـلّي عنكـم الأحزانـا مخالفٌ قـد خالـف الرحمانا
نصرتموه عابداً شيطانا

ثمّ ضربه فقتله.

وعـن صعصعـة قال: ثمّ أقبل الأشـتر يضرب بسـيفه جمهـور الناس حتى كشـف أهل الشـام عن الماء، وهـو يقول:

لا تذكـروا ما قـد مضى وفاتا والله ربّي باعـث الأمواتـا

مـن بعد ما صـاروا كذا رُفاتا لأوردنَّ خيـليَ الفراتـا
شُعث النواصي أو يقال ماتا

ولم تتوقف صولاته وحملاته المرفقة بأُرجوزاته على أصحاب معاوية التي منها:

لسـتُ ـ وإن يكـره ـ ذا الخـلاط ليـس أخو الحرب بـذي اختلاطِ
لكـن عبـوسٌ غـيرُ مستشـاط هـذا عـليٌّ جـاء في الأسـباطِ
وخلَّـف النعيـم بالإفـراط بعرصـة في وسـط البـلاطِ
منحَّـلُ الجسـم مـن الربـاط يحكـم حكـمَ الحـقِّ لا اعتبـاطِ

ومنها:

يا حوشبُ الجِلفُ ويا شيخَ كلع أيُكـما أراد أشـترَ النَّخـعْ
هـا أنـا ذا وقـد يَهولك الفـزع في حومـة وسـطَ قـرار قـد شرعْ
ثَـمَّ تلاقـى بطـلاً غـير جـزع سـائلْ بنا طلحةَ أصحابَ البدعْ
وسلْ بنا ذاتَ البعير المضطجـع كيف رأوا وقـع الليوث في النَّقعْ
تلقـى أمـراً كـذاك مـا فيـه خلع وخالـف الحـقّ بديـن وابتـدعْ

ولّمـا تعـالى بخيله حيـث أمره عـليٌّ عليه السلام، بعث إليه الأشـعث أن أقحم الخيـل، فأقحمها حتـى وضعت سـنابكها في الفرات، وأخذت القوم السـيوف، فولّـوا مدبرين ...!

هـذا وإنَّ الإمـام عليّاً عليه السلام لّما غلـب على الماء، وطرد عنه أهل الشـام، بعـث إلى معاوية: «إنـا لا نكافيـك بصُنعك، هلـمَّ إلى الماء، فنحن وأنتم فيه سـواء»! فأخذ كلٌّ منهما بالشريعة ممـا يليـه، وقال عليٌّ عليه السلام لأصحابـه: «إنَّ الخطب أعظم مـن منع الماء»!

وراح الأشـتر يواصـل قتالـه في أيام صفـين، ولم يتقدَّم له فارسٌ من فرسـان الشـام إلّا قتلـه، فعـن عبـد الله بن عاصم أنَّـه قال: حدثنـي رجلٌ من قومي؛ أنَّ الأشـتر خـرج يوماً، فقاتل بصفـين في رجـال مـن القـرّاء، ورجـال من فرسـان العرب، فاشـتد قتالهـم، فخرج علينـا رجـلٌ لقـلَّ والله مـا رأيـت رجلاً قط هـو أطـول ولا أعظم منـه! فدعـا إلى المبارزة،

فلـم يخـرج إليه إنسـان، وخـرج إليـه الأشـتر، فاختلفـا ضربتين، وضربـه الأشـتر فقتله. وأيـم الله، لقـد كنّا أشـفقنا عليه وسـألناه ألّا يخـرج إليـه! فلمّا قتله نادى منادٍ مـن أصحابه:

يـا سـهمَ سـهمَ بـن أبي العيـزار يـا خـيرَ مـن نعلمـه مـن زار

وجـاء رجل من الأزد فقال: أقسـم بـالله لأقتلن قاتلك! فحمل على الأشـتر، وعطف عليـه الأشـتر فضربـه، فإذا هو بـين يدي فرسـه، وحمل أصحابه فاسـتنقذوه جريحـاً، فقال أبـو رقيقـة السـهمي: كان هـذا نـاراً، فصادفـت إعصـاراً! فاقتتـل النـاس ذا الحجـة كلّه، فلـمّا مـضى ذو الحجّة تداعـى النـاس أن يكـفَّ بعضهم عـن بعـض إلى أن ينقـضي المحرّم، لعـلَّ الله أن يجـري صلحـاً واجتماعـاً. فكـفَّ الناس بعضهم عـن بعض...

ولمـا انسـلخ المحـرّم واسـتقبل صفـر سـنة سـبع وثلاثـين، وبـدأ الطرفـان يسـتعدان لمرحلـة أخـرى من القتـال، ولّمـا أن دخـلا فيها، كانـت واحدة مـن مفاصلهـا أن انهزمت ميمنـة أهـل العـراق، فأقبـل عليٌّ عليه السلام يركـض نحو الميسرة، يسـتثيب الناس ويسـتوقفهم ويأمرهـم بالرجـوع نحـو الفـزع، حتـى مـرَّ بالأشـتر فقال عليه السلام لـه: يـا مالك! قـال: لبيك يـا أمـيرَ المؤمنـين! قـال عليه السلام: إئـتِ هـؤلاء القـوم، فقل لهـم: أين فراركـم من المـوت الذي لـن تعجـزوه إلى الحيـاة التـي لا تبقـى لكم؟! فمضى الأشـترُ، فاسـتقبل النـاس منهزمين، فقـال لهـم الكلـمات التي أمـره عـليٌّ عليه السلام بهـنّ. وقـال: أيُّهـا النـاس! أنا مالك بـن الحارث يكرّرهـا فلـم يَلـو أحـدٌ منهـم عليـه. ثـمّ ظنَّ أنّـه بالأشـتر أعـرف في النـاس، فقـال: أيّها النـاس! أنـا الأشـتر، إليَّ أيّهـا النـاس. فأقبلـت إليـه طائفـة، وذهبـت عنـه طائفـة، فقال: عضضتـم بهَـن أبيكـم، مـا أقبـح والله ما قاتلتـم اليـوم! يا أيّهـا النـاس! غُضُّـوا الأبصار، وعضُّـوا عـلى النواجذ، واسـتقبلوا القـوم بهامِكم، ثمّ شـدّوا شـدّة قوم موتوريـن بآبائهم وأبنائهـم وإخوانهـم حَنَقًـا عـلى عدّوهـم، وقد وطَّنـوا على الموت أنفسـهم كي لا يُسـبقوا بثـأر. إنَّ هـؤلاء القـوم؛ والله لن يقارعوكم إلّا عـن دينكم، ليطفئوا السـنّة، ويُحيوا البدعة، ويُدخلوكـم في أمـر قد أخرجكم الله منه بحُسـن البصـيرة. فطيبُوا عبادَ الله نفسـاً بدمائكم

دون دينكم، فإنَّ الفرار فيه سلبُ العزّ، والغلبةُ على الفيء وذلُّ المحيا والممات، وعارُ الدنيا والآخرة، وسخطُ الله، وأليمُ عقابه.

ثمّ قال: أيّها الناس! أخلصوا إليَّ مذحِجاً. فاجتمعت إليه مذحج، فقال لهم: عضَضتم بصُمِّ الجندل! والله ما أرضيتم اليومَ ربَّكم، ولا نصحتم له في عدوِّه، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات، وفتيان الصباح، وفرسان الطّراد، وحُتوف الأقران، ومَذحِج الطِّعان الذين لم يكونوا يُسبقون بثأرهم، ولا تُطلُّ دماؤهم، ولا يُعرفون في موطن من المواطن بخسفٍ؛ وأنتم أحدُّ أهل مصركم، وأعدُّ حيٍّ في قومكم، وما تفعلوا في هذا اليوم فإنّه مأثور بعد اليوم. فاتّقوا مأثور الحديث في غدٍ واصدُقوا عدوَّكم اللقاء؛ فإنَّ الله مع الصابرين. والذي نفسُ مالكٍ بيده ما من هؤلاء ـ وأشار بيده إلى أهل الشام ـ رجلٌ على مثل جناح بعوضةٍ من دين الله. والله ما أحسنتم اليوم القراع. اجلُوا سوادَ وجهي، يرجع في وجهي دمي. عليكم بهذا السواد الأعظم، فإنَّ الله لو قد فضَّه تبِعه من بجانبيه كما يتبع مؤخّر السيل مُقدَّمه. قالوا: خُذ بنا حيثُ أحببتَ. فصمد بهم نحو عُظمهم مما نحو الميمنة، وأخذ يزحف إليهم الأشتر ويردُّهم،... ليس هذه فقط؛ بل لمّا سمع الأشتر أولئك الذين يقولون: ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا، ثمَّ نستقدم نحن وهم، فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر! فقال لهم: إليَّ، أنا أحالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظهر أو نهلك. فوقفوا معه على هذه النية والعزيمة. ففي هذا القول قال كعب بن جعيل:

وهمدان زُرقٌ تبتغي من تحالفُ

وزحف الأشتر نحو الميمنة، وثاب إليه أناس تراجعوا من أهل البصيرة والحياء والوفاء، فأخذ لا يصمُد لكتيبة إلّا كشفها، ولا لجمع إلّا حازه وردَّه!

وكان يقول حين يرى صمود أصحابه، وقد استُشهد بعضهم: هذا والله الصبر الجميل والفعل الكريم. ألا يستحي الرجل أن ينصرف لم يَقتُل ولم يُقتَل، ولم يُشفَ به على القتل؟

فهـو في الوقـت الـذي تراه مقاتـلاً؛ أيامه في صفين خطـيرة، تركت الرعـب في أعدائه، يحمـل عـلى أعدائه فيكشـفهم، تـراه يُراقب من حولـه، فيُحـرّض ويشـجّع الآخرين على القتـال، فكلماتـه تمـلأ فضـاء المعركـة: عضّـوا عـلى النواجـذ مـن الأضراس، واسـتقبلوا القـوم بهامكـم، فإنَّ الفـرار من الزحـف فيه سـلبُ العزِّ، والغلبةُ عـلى الفَـيء، وذلُّ المحيا والمماتِ، وعـارُ الدنيـا والآخرة...

هـذا، وكما وصفـوه، فإنَّه كان من أعظم الرجـال وأطولهم، إلّا أنَّ في لحمـه خِفّةً قليلة، وكان يومئذٍ يقاتـل عـلى فـرس لـه، وهـو مقنـع في الحديـد، في يـده صفيحـة لـه يمانيـة إذا طأطأهـا، خلـت فيها ماءً منصبًّا، فإذا رفعها، كاد يُغشي البصرَ شـعاعُها، ويضرب بسـيفه قُدمـاً، وهو يقـول: الغَمراتُ ثـمَّ ينجَلينا.

حتى قال أحدهم: ما في العرب رجلٌ مثل هذا، إن كان ما أرى من قتاله على نيّته ...

واستُشهد عمار فقال مالك الأشتر:

نحـن قتلنـا حوشـباً ... لمـا غـدا قـد أعلـما
وذا الـكلاع قبلـه ... ومعبـداً إذ أقدمـا
إن تقتلـوا منّـا أبـا ال ... يقظان شـيخاً مسـلما
فقـد قتلنـا منكـم ... سـبعين رأسـاً مجرمـا
أضحـوا بصفـين وقد ... لاقـوا نـكالاً مؤثـما

ومـن أيـام مالـك في صفين، حـين أقبل عمرو بـن العاص في خيـل من بعـده... وأقبل النـاس عـلى الأشـتر فقالـوا: يـوم مـن أيامـك الأُوَل، وقد بلـغ لـواء معاوية حيـث ترى. فأخذ الأشـتر لـواءه ثـمّ حمل وهـو يقول:

إنّي أنـا الأشـترُ معـروف الشَّـتر ... إنّي أنـا الأفعـى العراقـيُّ الذكـر
لسـتُ مـن الحـي ربيـع أو مضر ... لكنَّنـي مـن مَذحـج الغُـرِّ الغُرر

فضارب القوم حتى ردّهم على أعقابهم، فرجعت خيل عمرو.

وقال النجاشيُّ في ذلك:

رأيت اللواء لواء العقاب ... يقحمه الشانئ الأخزرُ
كليث العرين خلال العجاج ... وأقبل في خيله الأبترُ
دعونا لها الكبشَ كبشَ العراق ... وقد خالط العسكرَ العسكرُ
فردَّ اللواء على عقبه ... وفاز بحظوتها الأشترُ
كما كان يفعل في مثلها ... إذا ناب معصوصِبٌ منكرُ
فإن يدفع الله عن نفسه ... فحظُّ العراق بها الأوفرُ
إذا الأشترُ الخيرُ خلَّى العراق ... فقد ذهب العُرفُ والمنكرُ
وتلك العراقُ ومن قد عرفت ... كفقع تنبَّته القَرقَرُ.[1]

أسير أهل القبلة!

الأصبغ بن ضرار الأزدي، وكان طليعةً ومسلحةً لمعاوية، فندب الإمامُ عليٌّ عليه السلام له الأشتر، فأخذه أسيراً من غير أن يقاتل. وكان عليٌّ عليه السلام ينهى عن قتل الأسير الكافّ، فجاء به ليلاً، وشدَّ وثاقه وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح، وكان الأصبغ شاعراً مفوّهاً،... فأسمع الأشتر قصيدةً من اثني عشر بيتاً، وكان منها:

ألا ليتَ هذا الليل طبَّق سرمداً ... على الناس لا يأتيهم بنهار
يكون كذا حتى القيامة إنّني ... أحاذر في الإصباح ضرمةَ نار
فيا ليلُ طبِّق إنَّ في الليل راحةً ... وفي الصبح قتلي أو فِكاك إساري
فيا نفسُ مهلاً إنَّ للموت غايةً ... فصبراً على ما نابَ يا ابنَ ضرار
أأخشى ولي في القوم رحمٌ قريبةٌ ... أبى اللهُ أن أخشى والأشترُ جاري

---

١. انظر في هذا كله: وقعة صفين، لنصر بن مزاحم: ١٦٣ـ١٧٠، و ٣٩٦ـ٣٩٧ مع الهامش؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٣ : ٣٢٧، و ٨ : ٤٢؛ إضافة إلى الفتوح، لابن الأعثم؛ وتاريخ الطبري: أحداث وقعة صفين.

فغـذا به الأشـتر على عـليٍّ عليه السلام، فقال: يـا أمير المؤمنين عليه السلام، هذا رجل من المسـلحة لقيتُه بالأمـس، فـوالله لـو علمـتُ أنَّ قتله الحـقُّ قتلته، وقـد باتَ عندنـا الليلة وحركنا بشـعره، فـإن كان فيـه القتـلُ فاقتلـه وإن غضبنـا فيه، وإن سـاغ لك العفو عنـه، فهبه لنـا. قال: هو لـك يـا مالـك، فـإذا أصبـت منهم أسـيراً فلا تقتلـه، فإنَّ أسـير أهـل القبلة لا يفـادى ولا يقتـل. فرجـع بـه الأشـتر إلى منزله وقـال: لك مـا أخذنا منـك، ليس لك عندنـا غيره!

ومـن مواقفـه أيضـاً قصيدتـه التـي أخافـت معاويـة وأربكتـه، وقـد قالها حين سـمع عليًّـا عليه السلام يقول:

«إنّني مناجز القوم إذا أصبحتُ».

قد دنا الفصل في الصباح وللسلم ... رجـالٌ وللحـروب رجـالُ
فرجـالُ الحـروب كلُّ خِـدَبٍّ ... مُقحـم لا تهـدُّه الأهـوالُ
يضربُ الفارسَ المدجَّج بالسـيف ... إذا فُـلَّ في الوغـى الأكفـالُ
يـا ابن هنـدٍ شُـدَّ الحيازيمَ للموت ... ولا يذهبـنْ بـك الآمـالُ
إنَّ في الصبـح إن بقيـتَ لأمـراً ... تتفـادى مـن هولـه الأبطـالُ
فيـه عزُّ العـراق أو ظفرُ الشـام ... بأهل العراق والزلـزالُ
فاصبروا للطعان بالأسـل السُّـمر ... وضربٍ تجـري بـه الأمثـالُ
إن تكونـوا قتلتـم النفـرَ البيـضَ ... وغالـت أولئـك الآجـالُ
فلنـا مثلُهـم وإن عظـم الخـط ... بقليـل أمثالهـم أبـدالُ
يخضِبون الوشـيجَ طعناً إذا جُرَّت ... مـن المـوت بينهـم أذيـالُ
طلـبَ الفـوز في المعـاد وفي ذا ... تُسـتهان النفـوسُ والأمـوالُ

فأجابه الأشتر قائلاً:

نعـم نعـم أطلبـه شـهيدا ... معي حسـامٌ يقصمُ الحديدا
يترك هاماتِ العِدى حصيدا

فقتله.

فلما انتهى إلى معاوية شعر الأشتر، قال: شعرٌ مُنكرٌ من شاعر مُنكر، رأس أهل العراق وعظيمهم ومِسعَر حربهم، وأول الفتنة وآخرها. وقد رأيتُ أن أكتب إلى عليٍّ عليه السلام كتاباً أسأله الشام ـ وهو الشيء الأول الذي ردّني عنه ـ وألقي في نفسه الشكُّ والريبةُ... فإذا هو الأشتر!

ثمَّ زحف الإمام عليٌّ عليه السلام إلى أهل الشام بعسكر العراق والناس على راياتهم، وزحف إليهم أهل الشام، وقد كانت الحرب أكلت الفريقين، ولكنّها في أهل الشام أشدّ نكاية وأعظم وقعاً، فقد ملّوا الحرب وكرهوا القتال، وتضعضعت أركانهم. فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذَنوب، عليه السلاح، لا يرى منه إلّا عيناه وبيده الرمح، فجعل يضرب رؤوس أصحاب عليٍّ عليه السلام بالقناة، ويقول: سووا صفوفكم رحمكم الله! حتى إذا عدّل الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولّى أهل الشام ظهره، ثمَّ حمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: الحمد لله الذي جعل فينا ابنَ عمِّ نبيه، أقدمهم هجرةً، وأولهم إسلاماً، سيفٌ من سيوفِ الله صبَّه على أعدائه. فانظروا إذا حَمِيَ الوطيسُ، وثار القَتامُ، وتكسَّر المرانُ، وجالت الخيلُ بالأبطال، فلا أسمعُ إلّا غمغمةً أو همهمةً، فاتّبعوني وكونوا في إثري. ثمَّ حمل على أهل الشام، وكسر فيهم رُمحَه، ثمَّ رجع، فإذا هو الأشتر!

وهكذا ظلَّ الأشتر يسجل موقفاً تلو الآخر، وهو على فرس كميتٍ محذوف، قد وضع مِغفره على قربوس السرج، يخوض غمار قتال ما أشدَّه في ليلة الهرير، دون أن يغفل عمّن حوله، فمرّةً يناديهم: «اصبروا يا معشر المؤمنين، فقد حمي الوطيس»! وأخرى: «شدّوا، فدى لكم عمي وخالي! شدّةً ترضون بها الله وتُعزون بها الدين، فإذا شددتُ فشدّوا». ثمَّ نزل وضرب وجه دابته، ثمَّ قال لصاحب رايته: أقدم. فأقدم بها ثمَّ شدَّ على القوم، وشدَّ معه أصحابه يضرب أهل الشام حتى

انتهى بهم إلى عسكرهم. ثمَّ إنَّهم قاتلوا عند العسكر قتالاً شديداً، فقتل صاحب رايته. وأخذ عليٌّ عليه السلام ـ لمّا رأى الظفر قد جاء من قبله ـ يمدّه بالرجال. وهنا قام الإمامُ عليه السلام خطيباً:

فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أيّها الناس! قد بلغ بكم الأمرُ وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبقَ منهم إلّا آخر نفس، وإنَّ الأمور إذا أقبلت، اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غادٍ عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عزَّ وجلَّ»!

وكاد الأشتر أن يُغيّر وجه التاريخ!

حين «لم يبقَ منهم إلّا آخر نفس»! هكذا كان إخبار الإمام عليه السلام؛ إنَّه الشوط الأخير، يتولاه مالك الأشتر، ليُعلن انتصار الحقّ على الباطل، فيتغيّر وجه تاريخنا بانتهاء مرحلة الضلال التي طرأت عليه، وسلطة البغاة وتمردهم، واستبداد الطغاة وتعسفهم ... وإذا بالخديعة قد وقعت، وجاءت صيغتها:

«ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا! أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنَّك بالغ به حاجتك في القوم، فإنّي لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه! فعرف ذلك معاوية فقال: صدقت»!

هكذا تمخّض دهاءُ ابن العاص؛ ليُنقذ الموقف في ساعته الأخيرة، فكانت النهاية كما وصفها وتوقّعها: إن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا؛ وختم الأمر بالتحكيم!

جاءت نصيحة عمرو هذه لمعاوية، حين دعاه بعد أن بلغه خطاب عليٍّ عليه السلام، فقال: يا عمرو، إنّما هي الليلة حتى يغدو عليٌّ عليه السلام علينا بالفيصل أو بالفصل، فما ترى؟

قال: إنَّ رجالك لا يقومون لرجاله، ولستَ مثله؛ هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاءَ وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم،

وأهل الشام لا يخافون عليًّا عليه السلام إن ظفر بهم، ولكن ألق إليهم أمراً...

فرفعت المصاحف على أطراف الرماح، استقبلوا عليًّا عليه السلام بمئة مصحف، حتى بلغت خمسمئة مصحف. والإمام عليه السلام يقول:

«اللهمّ إنَّك تعلم أنَّهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم، إنَّك أنت الحكم الحقّ المبين».

فيما أصحابه اختلفوا في الرأي، فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحلّ لنا الحرب، وقد دعينا إلى حكم الكتاب!

وأما كبشُ العراق، وهو الأشتر، القائل وهو يخوض معارك صفين والمنادي بأعلى صوته في المخدوعين: «إنّي قد رجوتُ الله أن يفتح لي»!

«أمهلوني فواقاً، فإنّي قد أحسست بالفتح»! «فأمهلوني عدوة الفرس، فإنّي قد طمعتُ في النصر»! فكان يصبو إلى تحقيق ضربته الأخيرة، فيُنهي ملك بني أميّة وخطّهم ومنهجهم إلى الأبد، ويحظى بتغيير وجه تلك المرحلة بل ذلك التاريخ؛ فيأتي تاريخٌ آخر تحت ظلال الإمامة العادلة والصادقة والمحقّة ...

وكان صبيحة ليل الهرير ـ وهو الذي لم يكن يرى إلّا الحرب إنهاءً وإسقاطاً لمشروع القاسطين ـ قد أشرف على عسكر معاوية؛ ليدخله.

عن نصر قال: حدّثني فضيل بن خديج، عن رجل من النخع، قال: «رأيت إبراهيم بن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير (ويبدو أنَّ السائل هو مصعب بن الزبير) فسأله عن الحال كيف كانت؟ فقال: كنت عند عليٍّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه عليٌّ عليه السلام يزيد بن هانئ: أن ائتني. فأتاه فبلَّغه، فقال الأشتر: ائته فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي. إنّي قد رجوتُ الله أن يفتح لي فلا تعجلني! فرجع يزيد بن هانئ إلى عليٍّ عليه السلام فأخبره، فما هو إلّا أن انتهى

إلينا حتى ارتفع الرَّهجُ، وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائلُ الخذلان والإدبار على أهل الشام. فقال له القوم: والله ما نراك إلّا أمرته بقتال القوم. قال: أرأيتموني ساررتُ رسولي إليه؟ أليس إنّما كلّمتُه على رؤوسكم علانيةً وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلّا فوالله اعتزلناك.

قال: ويحك يا يزيد! قل له: أقبل إليَّ، فإنَّ الفتنة قد وقعت! فأتاه فأخبره. فقال له الأشتر: ألِرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال: أما والله لقد ظننت أنَّها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقةً، إنَّها من مشورة ابن النابغة ـ يعني عمرو بن العاص ثمّ قال ليزيد: ويحك ألا ترى إلى ما يَلقَون؟! ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟! أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟! فقال له يزيد: أتحبُّ أنَّك ظفرت هاهنا، وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام بمكانه الذي هو به يُفرج عنه ويُسلَم إلى عدوه؟! قال: سبحان الله! لا والله ما أحبُّ ذلك! قال: فإنّهم قالوا: لترسلنَّ إلى الأشتر، فليأتينّك أو لنقتلنّك بأسيافنا؛ كما قتلنا عثمان، أو لنُسلمنَّك إلى عدوِّك. فأجابهم: يا أصحاب الجباه السود ...!

هكذا خاطبهم حين أقبل الأشتر حتى انتهى إليهم، فصاح فقال: يا أهل الذلّ والوهن! أحين علوتم القوم، فظنوا أنّكم لهم قاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم. أمهلوني فواقاً، فإني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: فأمهلوني عدوة الفرس، فإنّي قد طمعتُ في النصر. قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك. قال: فحدّثوني عنكم ـ وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم ـ متى كنتم محقّين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم، وكانوا خيراً منكم في النار! قالوا:

دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله، وندع قتالهم في الله. إنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا. قال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود! كنا نظنُّ أنَّ صلاتكم زهادة في الدنيا؛ وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت! ألا فقبحاً يا أشباه النيب الجلاّلة! ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون! فسبوه وسبّهم، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، فصاح بهم عليٌّ عليه السلام فكفوا. وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين عليه السلام، احمل الصف على الصف يصرع القوم. فتصايحوا: إنَّ عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام قد قبل الحكومة، ورضي بحكم القرآن، ولم يسعه إلّا ذلك. قال الأشتر: إن كان أمير المؤمنين عليه السلام قد قبل ورضي بحكم القرآن، فقد رضيتُ بما رضي أمير المؤمنين عليه السلام. فأقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين عليه السلام، قد قبل أمير المؤمنين عليه السلام. وهو ساكت لا يبضُّ بكلمة مطرق إلى الأرض...» وهو الذي عرف بقوله:

«وأما كبش العراق، وهو الأشتر، فلم يكن يرى إلّا الحرب، ولكنه سكت على مضض».

وإن تقطّع قلبه حسرات، وانطوت نفسه على أهداف، فقد ختم موقفه أن كان واحداً ممن شهد بما في الكتاب أو وثيقة التحكيم؛ نزولاً عند إرادة الإمام عليه السلام وامتثالاً له...

وعاد مالك الأشتر إلى ولايته على الجزيرة حين ردَّه الإمامُ عليه السلام إليها بعد رجوعه من صفين؛ وإذا به يقود قتالاً ضدَّ هجمات وغارات في بعض أراضي الجزيرة من قبل أتباع معاوية بقيادة الضحّاك بن قيس الذي بعثه معاوية على ما في سلطانه من أرض الجزيرة...[1]

١. وقعة صفين ٢٥٠ ـ ٢٥٤، و ٤٧٣ ـ ٤٧٤، و ٤٨٤، ٤٩٢؛ كتاب الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي ١: ٣٢٢ـ٣٢٤ والهامش.

وأخيراً ولاية مصر :

فبعد أن رجع الإمامُ عليٌّ عليه السلام من صفين، وردَّ مالك الأشتر إلى ولايته على الجزيرة، اضطربت الأمور في مصر، وفسدت على محمد بن أبي بكر، فبلغ عليًّا عليه السلام توثبهم عليه، فقال: ما لمصر إلّا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها بالأمس، يعني قيس بن سعد، أو مالك بن الحارث الأشتر. فكتب الإمام عليه السلام لمالك وهو يومئذٍ بنصيبين:

«أما بعد، فإنّك ممن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأسدّ به الثغر المخوف. وقد كنتُ وليتُ محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه خوارج، وهو غلام حدث السن ليس بذي تجربة للحروب، فأقدم عليَّ لننظر فيما ينبغي. واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك. والسلام».

فأقبل الأشتر إلى عليٍّ عليه السلام، واستخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدي... فلمّا دخل الأشتر على عليٍّ عليه السلام حدّثه حديث مصر وخبّره خبر أهلها، وقال له:

«ليس لها غيرك، فاخرج إليها رحمك الله، فإنّي إن لم أوصك اكتفيتُ برأيك، أو (لا أوصيك اكتفاءً برأيك) واستعن بالله على ما أهمّك، واخلط الشدّة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم على الشدّة حين لا يغني عنك إلّا الشدّة».

سؤال: أبعد أن قتل محمد بن أبي بكر حصل هذا التعيين للأشتر، أو في حياته؟

لو اكتفينا بما جاء في كتاب الإمام عليٍّ عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر، لدلّنا على أنَّ محمد بن أبي بكر مازال حيًّا وقت تعيين الأشتر بدلاً عنه واليًّا على مصر، وأنَّ الأشتر قتل قبل وصوله مصر، أثناء استعداده، أو في طريقه إليها، فكتاب الإمام عليه السلام خير دليل على ذلك والمتضمّن ثلاثة أمور:

الأول: ما أصاب محمد بن أبي بكر من غيظٍ، أو شقَّ عليه وصعب وثقل ... «أما بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك...».

الثاني: إشادته بالأشتر وترحّمه عليه... «إنَّ الرجل الذي كنتُ وليتُه أمر مصر كان

رجلاً لنـا ناصحاً... فرحمـه اللهُ...»!

الثالـث: طلبـه مـن محمـد بمواصلـة ولايتـه ... «فأصحِـر لعـدوّك، وامـض عـلى بصيرتِـك ...».

هـذا، إضافـةً إلى جـواب محمـد بن أبي بكـر نفسـه... ففي النهـج: ومن كتـاب لهعليه السلام إلى محمـد بـن أبي بكر لمّـا بلغـه توجّـده مـن عزلـه بالأشـتر عـن مصر، ثـمّ توفي الأشـتر في توجهـه إلى مصر قبـل وصولـه إليها:

«أمّـا بعـد، فقـد بلغنـي موجدتك مـن تسريـح الأشـتر إلى عملـك، وإني لم أفعل ذلك اسـتبطاءً لـك في الجهـد، ولا ازدياداً لـك في الجدِّ، ولو نزعـتُ ما تحت يدكَ من سـلطانكَ لولّيتُـكَ مـا هو أيسر عليك مؤونـةً، وأعجب إليـكَ ولايـةً! إنَّ الرجل الذي كنـتُ وليتُه أمـر مـصر كان رجـلاً لنا ناصحـاً، وعلى عدوّنـا شـديداً ناقماً، فرحمـه اللهُ! فلقد اسـتكمل أيامـه ولاقـى حِمامَه، ونحـن عنـه راضـون. أولاهُ اللهُ رضوانَه وضاعف الثـوابَ له!

فأصحِـر لعـدوّك، وامض على بصيرتِك، وشـمِّر لحـرب من حاربك، وادع إلى سـبيل ربِّـك، وأكثـر الاسـتعانة بالله، يكفِـك ما أهمّـكَ، ويُعِنكَ على ما نـزل بكَ، إن شـاء اللهُ»!

وعـن ابـن أبي الحديـد: قـال إبراهيـم: وحدثنامحمـد بـن عبـد الله، عـن المدائنـي، عن رجالـه، أنّمحمـد بـن أبيبكر لمـا بلغـه أنَّ عليّـاًعليه السلام قد وجـه الأشـتر إلى مصر، شـقَّ عليه، فكتـبعليه السلام إليـه عند مهلـك الأشـتر: أمّا بعد، فقـد بلغنـي موجدتك من تسريح الأشـتر إلى عملـك، ولم أفعـل ذلك اسـتبطاءً لك عـن الجهاد، ولا اسـتزادة لك منـي في الجد، ولو نزعـت مـا حوت يداك مـن سـلطانك لولّيتك ما هـو أيسر مؤنـة عليك، وأعجـب ولاية إليـك! إلّا أن الرجـل الـذي وليته مـصر كان رجلاً لنا مناصحـاً، وهو على عدوّنا شـديد، فرحمـة الله عليـه! فقـد اسـتكمل أيامـه، ولاقـى حمامـه ونحـن عنـه راضـون، فـرضي الله عنـه، وضاعـف له الثواب، وأحسـن لـه المـآب! فأصحر لعدوك وشـمر للحـرب، وادع إلى سـبيل ربِّـك بالحكمة والموعظة الحسـنة، وأكثـر ذكـر الله والاسـتعانة به،والخوف منه،

يكفك ما همّك، ويعنك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلّا برحمته! والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه: إلى عبد الله أمير المؤمنين عليه السلام من محمد بن أبي بكر سلام عليك! فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فقد انتهى إليَّ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام وفهمته، وعرفت ما فيه، وليس أحد من الناس أشدّ على عدوّ أمير المؤمنين عليه السلام، ولا أرأف وأرق لوليه مني. وقد خرجت فعسكرت، وأمنت الناس إلّا من نصب لنا حرباً، وأظهر لنا خلافاً، وأنا أتبع أمر أمير المؤمنين عليه السلام، وحافظ ولاجئ إليه وقائم به، والله المستعان على كلّ حال، والسلام على أمير المؤمنين عليه السلام ورحمة الله وبركاته!

يقول صاحب النجوم الزاهرة: وفي ولاية الأشتر هذا على مصر قبل محمد بن أبي بكر الصديق اختلاف كثير، حكى جماعة كثيرة من المؤرخين، وذكروا ما يدل على أنَّ ولاية محمد بن أبي بكر كانت هي السابقة بعد عزل قيس بن سعد بن عُباجة، وجماعة قدموا ولاية الأشتر هذا، ولكلّ منهما استدلال قويّ، والذين قدّموا الأشتر هم الأكثر، وقد رأيت في عدّة كتب ولاية الأشتر هي المقدمة فقدمته لذلك.

ثمَّ الرجل لما ترجم للأشتر، وذكر التالي: قال علماء السيرة ـ كابن إسحاق وهشام والواقدي ـ: لما اختلَّ أمر مصر على محمد بن أبي بكر الصديق، وبلغ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: ما لمصر إلّا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها ـ يعني قيس بن سعد بن عُبادة ـ أو مالك بن الحارث، يعني الأشتر هذا.

قلتُ: وهذا مما يدلُّ على أنَّ ولاية محمد بن أبي بكر الصديق كانت هي السابقة، اللهمّ إلّا إن كان لما اختلَّ أمر مصر على محمد، عزله عليٌّ رضي الله عنه بالأشتر، ثمَّ استمرّ محمد ثانياً بعد موت الأشتر على عمله حتى وقع من أمره ...

أقول: أي حتى قُتل ألقاه قاتله في جيفة حمار ثمَّ حرقه بالنار، وقيل: إنّه قطع

رأسه، وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به، وهو أول رأس طيف به في الإسلام ... فإن صحَّ هذا فرأس عمرو بن الحمق الخُزاعي هو الثاني الذي طيف به، لا الأول ...

وقُتل الأشتر ـ رضوان الله عليه ـ مسموماً:

وختاماً وبما كان يُحبُّ الأشتر ويرجو؛ ختمتِ السماءُ حياته المعطرة إيماناً، وسيرته المفعمة حيويةً ونشاطاً في سبيل الحقِّ تعالى، ومواقفه التي لا تردد فيها ولا تخاذل، ولا تهالك على منافع دنيوية هنا وهناك، بل ثبوت على القيم والمبادئ الإسلامية التي وعاها واقتنع بها؛ ختمتها له بفوز طالما تمنّاه؛ ليجد مكانه، ﴿... مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

وقع هذا الأمر إمّا في شهر رجب ٣٧ هجرية، وإمّا في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة ٣٨ هجرية، وقيل في سنة ٣٩ هجرية، عن عمر لعلّه تجاوز سبعين سنة. ودفن إمّا في القلزم، ولضريحه قبة في منطقة المرج؛ قلزم القديمة...

وقد وردت أخبار في كيفية قتله، منها: أنّه قتل بمصر بعد قتال شديد... ومنها: أنَّه مات حتف أنفه ... ولكن أشهرها أنه سقي السمّ قبل أن يبلغ مصر، فمات مسموماً، وأنَّ معاوية بن أبي سفيان وراء ذلك، فهو الذي تابع أخبار تعيينه والياً على مصر، وراح يُحرّض ويُشجع على قتله قبل وصوله مصر. ففي الغارات: أنَّ عليًّا عليه السلام لمّا بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها، وبلغ معاوية خبره، بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصر يأمره باغتياله، فحمل معه مزودين فيهما شراب، وصحب الأشتر فاستسقى الأشتر يوماً، فسقاه من أحدهما ثمّ استسقى ثانيةً فسقاه من الآخر وفيه سمٌّ فشربه، فمالت عنقه، فطلبوا الرجل ففاتهم...

وخبر آخر عن مغيرة الضبي: أنَّ معاوية دسَّ للأشتر مولى لآل عمر، فلم يزل

المولى يذكر للأشتر فضل عليٍّ عليه السلام وبني هاشم حتى اطمأنّ إليه الأشتر واستأنس به، فقدم الأشتر يوماً ثقله أو تقدم ثقله، فاستسقى ماء، فقال له مولى عمر: هل لك ـ أصلحك الله ـ في شربة سويق؟ فسقاه شربة سويق فيها سمٌّ فمات.

قال: وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دسَّ إليه السمَّ مولى عمر: ادعوا على الأشتر فدعوا عليه، فلمّا بلغه موته، قال: ألا ترون كيف استجيب لكم!

يقول ابن أبي الحديد: فخرج الأشتر من عنده، فأتى برحله، وأتت معاوية عيونه، فأخبروه بولاية الأشتر مصر فعظم ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر، فعلم أنَّ الأشتر إن قدم عليها كان أشدَّ عليه من محمد بن أبي بكر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به، وقال له: إنَّ الأشتر قد ولّي مصر، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتُ وبقيتَ، فاحتل في هلاكه ما قدرتَ عليه...

الذهبي: ولمّا رجع عليٌّ عليه السلام من موقعة صفين، جهز الأشتر والياً على ديار مصر، فمات في الطريق مسموماً، فقيل: إنَّ عبداً لعثمان عارضه فسمَّ له عسلاً، وقد كان علي يتبرّم به؛ لأنّه صعب المراس، فلمّا بلغه نعيه، قال: إنا لله، مالك، وما مالك، وهل موجود مثل ذلك؟ لو كان حديداً لكان قيداً، ولو كان حجراً؛ لكان صلداً على مثله فلتبك البواكي!

عالَمان! لقد كان لوقع أنباء مقتله رضوان الله عليه أصداء عظيمة، توزعت بين عالَمين؛ كما جاء في كلمة الإمام عليٍّ عليه السلام وهو يؤبّن مالكاً ويرثيه:

«أما والله ليهدّنَّ موتُك عالَماً، وليُفرحنَّ عالَماً»! عالَم الإمام عليٍّ عليه السلام وأتباعه. عالَم معاوية وأتباعه. وشتّان بين هذين العالَمين في تلقي خبر رحيل مالك الأشتر! فبقدر حزن عليٍّ عليه السلام وألمه، بل أكثر من ذلك، كانت شماتة معاوية وفرحه الذي لم يخفه، فكانت له كلمات، منها: أنَّه ما إن وصله نبأ مقتله حتى ردّد كلمته المشهورة:

«إنَّ لله جنوداً من عسل»! كلمة طالما كان يُرددها هو وصاحبه عمرو بن العاص

الـذي سرَّ أيضـاً بهـلاك مالـك، وقـال: إنَّ لله جنـوداً من عسـل. ومنهـا: أنَّه لمّـا أقبل إليه الـذي سـقاه السـمَّ، وأخبره بهـلاك الأشـتر، قام في النـاس خطيبـاً، فقال:

أمّـا بعـد، فإنّـه كان لعليّ بـن أبي طالب عليه السلام يـدان يمينـان، فقطعت أحدهمـا يوم صفين (يعني عـمار بـن يـاسر)، وقطعـت الأخرى اليـوم وهو مالك الأشـتر.

فيـما كان لمقتلـه أثـر كبـير عـلى الإمـام عـليٍّ عليه السلام، حتـى ورد عن صعصعة بـن صوحان أنَّـه لـمّا بلـغ عليًّـا عليه السلام مـوت الأشـتر، قـال: «إنـا لله وإنا إليـه راجعـون، والحمـد لله ربِّ العالمـين، اللهـمّ إنّي أحتسـبه عندك، فإنَّ موتـه من مصائب الدهـر، فرحـم الله مالكاً! فقد وفى بعهـده، قـضى نحبـه، ولقى ربَّه، مـع أنّا قد وطّنا أنفسـنا على أن نصبر عـلى كلِّ مصيبة بعـد مصابنا برسـول الله صلى الله عليه وآله، فإنّها أعظـم المصائب»!

عـن أشـياخ النخـع؛ قالـوا: دخلنـا على عليٍّ عليه السلام حـين بلغـه مـوت الأشـتر، فجعـل يتلهّـف ويتأسـف عليه ويقـول: لله درّ مالك..! وما مالـك! لو كان جبلاً لـكان فنداً، ولو كان حجـراً لـكان صلـداً، أمـا والله ليهـدنّ موتـك عالمـاً وليفرحـنّ عالماً، عـلى مثل مالك فلتبـك البواكـي، وهل موجـود كمالك؟!

وقريـب منـه عن الشريف الـرضي: مَالِـكٌ وَمَا مَالِـكٌ! والله لَـوْ كَانَ جَبَلاً لَـكَانَ فِنْداً، ولَـوْ كَانَ حَجَراً لَـكَانَ صَلْـداً، لاَ يَرْتَقِيهِ الْحَافِـرُ، ولاَ يُوفِي عَلَيْـهِ الطَّائِرُ!

قال الرضي: و الفند: المنفرد من الجبال.

عـن مغـيرة الضبـي قـال: لم يـزل أمـرُ عـليٍّ عليه السلام شـديداً حتى مات الأشـتر، وكان الأشتر بالكوفة أسـود (هـو أسـود مـن فـلان أي أجـلّ منـه، الأسـود مـن القـوم أجلّهم) مـن الأحنـف بالبـصرة.

ابـن أبي الحديـد، بعد أن يذكر ما هو خلاف المشـهور من تاريخ وفاتـه وأنّه مات حتف أنفـه قال: أنَّ الأشـتر مات في سـنة تسـع وثلاثـين متوجهـاً إلى مصر واليـاً عليها لعليٍّ عليه السلام. قيل: سـقي سـمًّا، وقيل: إنّه لم يصـح ذلـك، وإنّما مات حتف أنفه.

قال: فأمّا ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل، فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق.

وقال ابن أبي الحديد عنه، وهو يذكر سيرته في القتال:

لله أمٌّ قامت عن الأشتر، لو أنَّ إنساناً يقسم أنَّ الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلّا أستاذه عليه السلام؛ لما خشيتُ عليه الإثم! ولله درّ القائل، وقد سئل عن الأشتر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق!

وبحقّ ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: «كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله»!

وقال عليه السلام: «وبكته أختُه».

وقد روى أبو العباس المبرد في «الكامل» لأخت الأشتر مالك بن الحارث النخعي تبكيه:

أبعد الأشتر النخعي نرجو ... مكاثرةً ونقطع بطن واد
ونصحب مذحجاً بإخاء صدق ... وإن نُنسب فنحن ذرا إياد
ثقيفٌ عمُّنا وأبو أبينا ... وإخوتنا نزار أولو السّداد.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، قال: حدّثنا مولى للأشتر، قال: لما هلك الأشتر، أصيب في ثقله رسالة علي عليه السلام إلى أهل مصر: «من عبد الله أمير المؤمنين عليه السلام إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عُصي في الأرض، وضرب الجور برواقه على البر والفاجر، فلا حق يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه. سلام عليكم! فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو.[1]

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ٤٠٧؛ ٣٤، رقم: ٤٤٣ ومن كتاب له عليه السلام؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٦: ٧٨-٧٩ و ١٥: ١٠١-١٠٢ و ٢: ٢١٣-٢١٤ و ٨: ٣٠٤؛ تهذيب التهذيب،

رسائلُ وكتبٌ وعهدٌ مباركٌ :

بضاعـة اصطحبهـا الأشـتر معـه؛ من الإمـام عليه السلام إلى أهل مـصر، عُثر عليهـا في خرجه بعـد أن غُدر بـه، فقُتل!

عـن فضيـل بـن خديـج، عـن مـولى الأشـتر، قـال: لماهلك الأشـتر وجدنـا في ثقلـه رسـالة عـلي عليه السلام إلى أهل مـصر: «بسـم الله الرحمـن الرحيم، من عبـد الله أمـير المؤمنين إلى النفـر من المسـلمين الذين غضبـوا لله إذ عصي في الأرض، وضرب الجـور برواقه، على البرِّ والفاجـر، فلا حق يسـتراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه، سـلام عليكم فـإنّي أحمد إليكم الله الـذي لا إلـه إلّا هـو. أمّا بعـد، فقد وجّهت إليكـم عبداً من عبـاد الله لا ينـام أيام الخوف، ولا ينـكل عـن الأعـداء حذار الدوائر، أشـدّ عـلى الكفار مـن حريق النـار، وهو مالك بن الحـارث الأشـتر أخو مذحج، فاسـمعوا لـه وأطيعوا، فإنه سـيف من سـيوف الله، لا نابي الضريبـة ولا كليـل الحد، فـإن أمركم أن تقيمـوا فأقيمـوا، وإن أمركم أن تنفـروا فانفروا، وإن أمركـم أن تحجمـوا فأحجمـوا، فإنّـه لا يقـدم ولا يحجـم إلّا بأمـري، وقـد آثرتُكم به عـلى نفـسي لنصيحته وشـدّة شـكيمته على عـدوّه، عصمكـم الله بالحـقِّ وثبتكـم باليقين، والسـلام عليكم ورحمـة الله وبركاته».[1]

والأشـتر في طريقـه إلى مـصر سـنة ٣٨، يحمـل كتـاب تعيّنـه واليًـا عليهـا مـن قبـل الإمـام عـلي عليه السلام وبيـده عهد، يُعـدُّ هو الوثيقـة الأطـول والأحكم بمضامينها السياسـية

لابـن حجر العسـقلاني ١٠ : ١٣ ؛ وسـير أعلام النبلاء، للذهبي ٤ : ٣٤ ؛ كتـاب الغارات، للثقفي ١ : ٢٥٦ـ٢٥٩ ، ٢٦٤ـ٢٦٥ ؛ الصحـاح والقامـوس: أسـود ؛ شرح نهـج البلاغـة، لابـن أبي الحديد ٦ : ٧٤؛ النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسـن يوسـف بـن تغرى (ت ٨٧٤ هجريـة) سـنة ٣٦ ذكر ولاية الأشـتر النخعـي على مصر وولاية محمـد بن أبي بكـر ١ : ١٣٥ـ١٤٨

١. نهـج البلاغـة، صبحـي الصالح : ٤١٠، الكتاب رقـم ٣٨ و رقـم ٦٢ : ٤٥١ـ٤٥٢ ؛ إضافةً لغيرها من الكتـب إلى أهـل مـصر التي رافقـت مالك الأشـتر، وكلهـا بمضامينها العاليـة مع ما فيهـا من ترجمة صادقة لمالك ولسـيرته وإشـادة به تُعـدُّ الوثائق الأدقّ لتلـك المرحلة .

والاجتماعية والأخلاقية، تُعدُّ دستور عمل، سميت بالعهد، أو هكذا عرفت واشتهرت في التاريخ، لم يكتب الإمامُ عليه السلام مثلَه إلى ولاته، بل اختصَّ مالكاً به دون غيره، وهو دليل آخر على أهمية هذا العبد الصالح وجدارته، وأنّه أهل لهذا العهد إلتزاماً وعملاً، لولا كيد الظالمين، وكما يصفه صبحي الصالح: وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن.

ويصفه ابن أبي الحديد: إنَّه نسيج وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة.

وقال فيه شهاب الدين النويري: لم أرَ فيما طالعته من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشمل من عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه مصر، فأحببت أن أورده على طوله، وآتي على جملته وتفصيله؛ لأنَّ مثل هذا العهد لا يُهمل، وسبيل فضله لا يُجهل.

وقال فيه القلقشندي: كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عهد مالك بن الأشتر النخعي حين ولّاه مصر، وهو من العهود البليغة، جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك، وهذه نسخته فيما ذكره ابن خلدون في تذكرته: ...[1]

... ومن كتاب له عليه السلام، كتبه للأشتر النخعي، لمّا ولّاه مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُاللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَفِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ ولاَّهُ مِصْرَ جبَايَةَ خَرَاجِهَا وجِهَادَ عَدُوِّهَا وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا وعِمَارَةَ بلاَدِهَا.

---

١. كتاب صبح الأعشى، للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٠ : ١٢ شرح ١ : ٢٦٦ـ٢٦٧ ؛ نهاية الأرب في فنون الآداب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣ هجرية) تحقيق: الدكتور علي بو ملحم، دار الكتب العلمية بيروت ٦ـ٧ـ٨: ٢١ـ٣١ .

أَمَـرَهُ بتَقْـوَى الله وإيْثَـار طَاعَتِـهِ واتِّبَـاع مَا أَمَرَ بـهِ فِي كِتَابِهِ مِـنْ فَرَائِضِهِ وَسُـنَنِهِ، الَّتِي لاَ يَسْـعَدُ أَحَـدٌ إلَّا باتِّبَاعِهَـا ولاَ يَشْـقَى إلَّا مَـعَ جُحُودِهَا وإضَاعَتِهَـا، وأنْ يَنْصُرَ اللهَ سُـبْحَانَهُ بقَلْبِـهِ ويَـدِهِ ولسَـانِهِ فَإنَّهُ جَلَّ اسْـمُهُ قَـدْ تَكَفَّلَ بنَصْر مَـنْ نَصَرَهُ وإعْـزَاز مَنْ أعَـزَّهُ، وأمَرَهُ أنْ يَكْـسِرَ نَفْسَـهُ مِـنَ الشَّـهَوَاتِ ويَزَعَهَا عِنْـدَ الْجَمَحَـاتِ فَإنَّ النَّفْـسَ أمَّارَةٌ بالسُّـوءِ إلَّا مَا رَحِمَ اللهُ!

ثُـمَّ اعْلَـمْ يَـا مَالِـكُ أنِّي قَـدْ وَجَّهْتُكَ إلَى بـلاَدٍ قَـدْ جَـرَتْ عَلَيْهَـا دُولٌ قَبْلَكَ مِـنْ عَدْل وَجَـوْر، وأنَّ النَّـاسَ يَنْظُـرُونَ مِـنْ أمُـورِكَ فِي مِثْـل مَـا كُنْـتَ تَنْظُـرُ فِيـهِ مِـنْ أمُور الْـوُلاَةِ قَبْلَـكَ، ويَقُولُـونَ فِيـكَ مَا كُنْتَ تَقُـولُ فِيهِمْ، وإنَّمَا يُسْـتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بمَا يُجْـرِي اللهُ لَهُمْ عَـلَى أَلْسُـن عِبَـادِهِ، فَلْيَكُنْ أحَـبَّ الذَّخَائِـرِ إلَيْكَ ذَخِـيرَةُ الْعَمَـل الصَّالِح، فَامْلِـكْ هَوَاكَ وَشُـحَّ بنَفْسِـكَ عَـمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ فَإنَّ الشُّـحَّ بالنَّفْس الإنْصَـافُ مِنْهَا فِيمَا أحَبَّـتْ أوْ كَرِهَتْ، وأشْـعِرْ قَلْبَـكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّـةِ والْمَحَبَّةَ لَهُـمْ واللُّطْفَ بِهِـمْ، ولاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَـبُعاً ضَارياً تَغْتَنِـمُ أكْلَهُـمْ؛ فَإنَّهُـمْ صِنْفَـان إمَّا أخٌ لَـكَ فِي الدِّين وإمَّـا نَظِيرٌ لَـكَ فِي الْخَلْق يَفْـرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَـلُ وتَعْـرِضُ لَهُـمُ الْعِلَـلُ، ويُؤْتَى عَـلَى أيْدِيهِـمْ فِي الْعَمْـدِ وَالْخَطَـإ فَأعْطِهِمْ مِـنْ عَفْوكَ وَصَفْحِـكَ مِثْـل الَّـذِي تُحِـبُّ وتَـرْضَى أنْ يُعْطِيَـكَ اللهُ مِنْ عَفْـوِهِ وصَفْحِـهِ فَإنَّـكَ فَوْقَهُمْ ووَالِي الأَمْـر عَلَيْـكَ فَوْقَـكَ واللهُ فَوْقَ مَـنْ ولاَّكَ ...[1]

وهـذه خلاصة مـا جاء عنـه في أقوالهم: معجم رجـال الحديث: الأشـتر النخعي: من أصحاب عليٍّ عليه السلام، رجال الشـيخ.

وعدَّه البرقي في أصحاب عليٍّ عليه السلام من اليمن...

وعدَّه ابـن شهرآشـوب في المناقـب: مـن وجـوه الصحابـة وخيـار التابعـين... عـدَّ الأشـتر مـن التابعـين الكبـار، ورؤسـائهم وزهادهـم... وقـال الكـشي: حدّثني عبيـد بن محمد النخعـي... وكانـت لـه صحبة، قال: مكـث أبوذر رحمـه الله بالربذة حتى مـات، فلمّا

١. انظر نصُّ العهد كاملاً في الكتاب رقم٥٣ نهج البلاغة، صبحي الصالح ٤٢٦ـ٤٤٥ .

حضرته الوفاة، قال لامرأته: اذبحي شاة من غنمك واصنعيها، فإذا نضجت فاقعدي على قارعة الطريق، فأول ركب ترينهم قولي: يا عباد الله المسلمين! هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قد قضى نحْبه ولقي ربَّه، فأعينوني عليه، وأجيبوه، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني أنّي أموت في أرض غربة، وأنّه يلي غسلي ودفني والصلاة عليَّ رجال من أمّته صالحون.

محمد بن علقمة بن الأسود النخعي، قال: خرجت في رهط أريد الحجَّ، منهم مالك بن الحارث الأشتر... حتى قدمنا الربذة، فإذا امرأة على قارعة الطريق تقول: يا عباد الله المسلمين! هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قد هلك غريباً، ليس لي أحد يعينني عليه، قال: فنظر بعضنا إلى بعض وحمدنا الله على ما ساق إلينا، واسترجعنا على عظم المصيبة، ثمّ أقبلنا معها، فجهّزناه وتنافسنا في كفنه حتى خرج من بيننا بالسواء، ثمّ تعاونّا على غسله حتى فرغنا منه، ثمّ قدّمنا مالك الأشتر فصلّى بنا عليه، ثمّ دفنّاه، فقام الأشتر على قبره، ثم قال: اللهمّ هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عبَدك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغير ولم يبدل، لكنّه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفي، ونفي، وحرم، واحتقر، ثمّ مات وحيداً غريباً، اللهمّ فاقصم من حرمه، ونفاه من مهاجره وحرم رسولك، قال: فرفعنا أيدينا جميعاً، وقلنا: آمين، ثمّ قدمت الشاة التي صنعت، فقالت: إنّه قد أقسم عليكم ألّا تبرحوا حتى تتغدوا، فتغدينا وارتحلنا

قال الكشي: ذُكر أنّه لما نعي الأشتر مالك بن الحارث النخعي إلى أمير المؤمنين عليه السلام، تأوه حزناً، وقال: «رحم الله مالكاً! وما مالك؟! عزَّ عليَّ به هالكاً، لو كان صخراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فنداً، وكأنّه قُدَّ مني قدًّا».

وروى الشيخ المفيد مرسلاً عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «يخرج مع القائم عليه السلام من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلاً، خمسة عشر من قوم موسى عليه السلام،

الذين كانوا يهدون بالحقّ وبه يعدلون، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وسلمان، وأبو دجانة الأنصاري، والمقداد، ومالك الأشتر، فيكونون بين يديه أنصاراً وحكاماً».

وروى بإسناده إلى عبد الله بن جعفر ذي الجناحين، قال: لما جاء علي بن أبي طالب صلوات الله عليه مصاب محمد بن أبي بكر، حيث قتله معاوية بن خديج السكوني بمصر، جزع عليه جزعاً شديداً، وقال: ما أخلق مصر أن يذهب آخر الدهر، فلوددت أنّي وجدت رجلاً يصلح لها فوجهته إليها، فقلت:

تجد، فقال: من؟ فقلت: الأشتر، قال عليه السلام: «ادعه لي، فدعوته، فكتب له عهده، وكتب معه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من علي بن أبي طالب إلى الملإ من المسلمين الذين غضبوا لله حين عصي في الأرض وضرب الجور بأرواقه على البرّ والبحر، فلا حقّ يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه، سلام عليكم! أمّا بعد؛ فإنّي قد وجهت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء، حذار الدوائر، أشدّ على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا؛ فإنّه سيف من سيوف الله لا يأتي الضريبة، ولا كليل الحد، فإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تحجموا فاحجموا، فإنّه لا يقدم إلّا بأمري، فقد أمرتكم به على نفسي؛ لنصيحته لكم، وشدّة شكيمته على عدوكم، عصمكم ربُّكم بالهدى وثبتكم باليقين».

وروى عن عبد الله بن جعفر، قال: وكان لمعاوية بمصر عين يقال له مسعود بن جرجة، فكتب إلى معاوية بهلاك الأشتر، فقام معاوية خطيباً في أصحابه، فقال: إنَّ عليّاً عليه السلام كانت له يمينان قطعت إحداهما بصفين، (يعني عمار بن ياسر)، وأخرى

اليـوم، إنَّ الأشـتر مرَّ بأيلـة متوجهاً إلى مـصر، فصحبه نافـع مولى عثمان، فخدمـه وألطفه حتـى أعجبـه واطمـأن إليـه، فلـمّا نـزل القلزم حـاضر له شربة من عسـل بسـمٍّ، فسـقاها فـمات، ألا وإنّ لله جنـوداً من عسـل!

وروى بإسناده إلى عوانة، قال: لمّـا جاء هلاك الأشتر إلى عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، صعد المنبر وخطـب الناس، ثمّ قال:

«ألا إنَّ مالـك بـن الحارث قد مضى نحبـه، وأوفى بعهـده، ولقي ربَّه، فرحـم الله مالكاً، لـو كان جبـلاً لـكان فنـداً، ولـو كان حجراً لـكان صلـداً، لله مالـك! وما مالـك؟! وهل قامـت النسـاء عن مثـل مالك؟ وهـل موجـود كمالك»؟!

قـال: فلما نـزل ودخل القـصر، أقبل عليـه رجال من قريـش، فقالوا: لشـدّ ما جزعت عليـه ولقدهلك، قـال: أم (أمّـا) هلاكه فقد أعزّ أهـل المغرب، وأذلّ أهـل المشرق! وبكى عليـه أياماً، وحـزن عليه حزناً شـديداً، وقال: لا أرى مثلـه بعده أبداً!

وتقـدّم في ترجمة جنـدب بـن جنادة رواية الفقيـه: قـول رسـول صلى الله عليه وآله لأبي ذر ـ رحمة الله عليـه ـ: يـا أبـاذر، تعيـش وحدك، وتمـوت وحـدك، وتدخل الجنـة وحدك، ويسـعد بك قـوم مـن أهل العراق يتولّـون غسـلك وتجهيـزك ودفنك...

وقال السـيد الخوئي: ولقد أجاد العلّامة في الخلاصة حيث قال: مالك الأشتر، قدّس الله روحـه ورضي الله عنـه، جليـل القـدر عظيـم المنزلـة، كان اختصاصه بعليٍّ عليه السلام أظهـر من أن يخفى، وتأسـف أمير المؤمنين عليه السلام بموته، وقال:

«لقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله!

وذكر ابن داود في رجاله قريباً من ذلك.

وبعـد أن قال السـيد الخوئـي: إنَّ جلالة مالـك واختصاصه بأمير المؤمنـين عليه السلام، وعظم شـأنه، ممـا اتفقت عليـه كلمة الخاصـة والعامـة... راح يذكر ما قالـه كلٌّ من ابـن عبد البرّ في ترجمة جنـدب بـن جنـادة (أبي ذر)، وابـن أبي الحديـد في شرحـه. ونحـن ننقل مـا ذكراه

ومـا ذكره غيرهمـا بإيجاز:

فمـمّا ذكـره الأول: هو ما جـاء عن الصحابي الجليـل أبي ذر الغفاري رضـوان الله عليه مـن حديث رسـول الله ﷺ يحمل وسـاماً خالداً وشـهادة بإيـمان جماعة من المسـلمين، كان مالـك الأشـتر واحـداً منهم: ... ثمَّ اسـتقدمه عثمان؛ لشـكوى معاوية به وأسـكنه الربذة، فـمات بهـا، وصـلّى عليـه عبد الله بـن مسـعود؛ صادفه وهـو مقبل مـن الكوفة مـع نفر من فضـلاء مـن أصحابـه؛ منهـم حجـر بـن الأدبـر ومالـك بـن الحـارث الأشـتر وفتـى من الأنصـار، دعتهـم امرأته إليه، فشـهدوا موتـه، وغمّضوا عينيه وغسـلوه وكفّنـوه في ثياب الأنصـاري في خبر عجيب حسـن فيـه طول!

ثـمّ روى عـن أبي ذر أنّـه قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول لنفـر أنا فيهـم: «ليموتنّ رجـل منكم بفـلاة مـن الأرض تشـهده عصابة من المؤمنـين ...».

أمّـا ابـن أبي الحديـد، فقـد خصّص فصـلاً كاملاً تحت عنوان: فصلٌ في نسـب الأشـتر وذكـر بعـض فضائله؛ مبتدئـاً ذلك بكتـاب الإمـام عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشـه، يقول فيه:

«وقـد أمـرتُ عليكـما وعـلى مـن في حيزكما مالـكَ بـن الحارث الأشـتر، فاسـمعا لـه وأطيعـا، واجعلاه درعـاً ومجناً، فإنّه ممّن لا يخاف وهنه ولا سـقطته، ولا بطـؤه عمّا الإسراع إليـه أحـزم، ولا إسراعـه إلى مـا البطء عنـه أمثل»!

ثـمَّ بعـد أن يذكر نسـبه: هـو مالك بن الحـارث بن عبد يغـوث... يقول: وكان فارسـاً شـجاعاً رئيسـاً من أكابر الشـيعة وعظمائها، شـديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعـد موته:

«رحم الله مالكاً! فلقد كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ».

وقـد روى المحدثـون حديثـاً (الحديـث أعـلاه) يـدل عـلى فضيلـة عظيمـة للأشـتر رحمـه الله! وهي شـهادة قاطعة من النبيِّ ﷺ بأنـه مؤمـن...

ويقـول أيضـاً:... وأمّـا الأشـتر فهـو أشـهر في الشـيعة مـن أبي الهذيـل في المعتزلـة... وذكرنـا آثـار الأشـتر ومقاماتـه بصفـين...[1]

وإنه لمن الصالحين ، والحمد لله ربِّ العالمين !

١. انظـر معجـم رجال الحديث، للسـيد الخوئـي ١٥ : ١٦٧ ـ ١٧١ تحت رقم ٩٨٢٠ ؛ الاسـتيعاب لابن عبـد الـبرّ، حـرف الجيم، جندب بن جنـادة ؛ شرح نهج البلاغة، لابـن أبي الحديد ١٦ مـن ٩٨ ـ ١٠٣ مبتدئاً ذلـك بالأصل ١٣ .